كن من الفائزين

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 3947 / 2020

الترقيم الدولي: 8 – 462 – 838 – 977 – 978

الكتاب: كن من الفائزين

المؤلف: عادل الحلبي

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

كن من الفائزين

عادل الحلبي

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى حبيبي، ومثلي الأعلى أستاذي القامة والهامة.. إلى معلمي الذي أدين له بالجميل، والشكر الجزيل (بعد فضل الله) الأستاذ عبد الهادي رجب (بقرية ظفر – دقهلية) الذي شجعني، وغرس فيّ «نبتة» موهبة الكتابة منذ نعومة أظافري.

إلى كل قرائي، وكل من دعمني ولو بشطر كلمة طيبة أو بدعاء خالص بظهر الغيب.

إلى الأيام التي أظهرت لي الوجوه الحقيقة، وأسقطت الأقنعة عن بعض الأصدقاء، إلى كل من خذلني أو تخلى عني في أوقات المحنة.

أقول للجميع شكرًا

أقول للجميع شكرًا

فهرس

المقدمة 11

سامحني يا رب 13

وصية أب لـ«ابنته» ليلة «زفافها»! 16

وصية أب لـ«زوج إبنته» ليلة «زفافه» 21

إلى ولدي 25

محكمة «الآخرة» 29

اقترب مني 33

في «الخريف» 37

مضى قطار العمر 42

حُسن الختام 44

الرحلة «الأخيرة» 47

على سرير المرض 52

على «شفير القبر» 56

في «سكرات الموت» 58

إلى «المسافر» بلا «عودة» 62
أمسك عليك «لسانك» 65
إلا «الخيانة» 68
إلى «غافـــل» 72
لا تتاجروا بالقرآن 75
إلى «مغرور» 79
إلى كل «مهموم» 83
إلى كل مكفوف ومبصر 86
قبل فوات الأوان 89
قبل النوم 92
إلى «منافق» عجوز 96
إلى الصديق «المُتلون» 99
لا للإرهاب لا للبلطجة 104
إياك وطعام الحرام 108
من أرض الغُربة 111
إلى «مُنتحر» 115

لا للتنمر 118
لا تسترق «السمع» 121
«مِسك الختام» 125
تعريف بالكاتب 129

المقدمة

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلامًا على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى، وبعد:

أقدم لك عزيزي القارئ هذه «الوصايا» التي جمعتها لك من عصارة تجاربي في الحياة، وتعايشت معها على مدار عدة سنوات قبل البدء في تأليفها، سائلًا الله -تعالى- أن ينفعنا بها، وأن يجعلنا من السعداء في الدارين.

هدانا الله وإياكم سُبل الهدى والرشاد، وجنبنا طريق الزلل والزيغ والفساد، والحمد لله رب العالمين، وصل الله وسلم على سيدنا الحبيب محمد خاتم النبيين، وإمام المهتدين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

عادل الحلبي

سامحني يا رب

اللهم إني مُقر بعجزي وتقصيري، وموكل إليك أمري ومصيري.. اللهم اصرف عني ما يشغلني عنك، ولا تجعل عليّ من خلقك أو رزقك سلطانًا يأخذني منك أو يصرفني عنك طرفة عين أو انتباهتها، واجعل الدنيا يا رب خلف ظهري، واجعلني لك توابًا أوابًا منيبًا، واجعل لي في النهار سبحًا طويلًا، وحبب إلى قلبي ناشئة الليل.. إن ناشئة الليل هي أشد وطئًا وأقوم قيلا، واجعل توكلي عليك، وجملني بالصبر إذا حل بي خطبك الجلل، وردني إليك ردًا جميلًا.

سامحني يا رب.. حينما أقف في صلاتي وأتذكر معاناتي، ويذهب عقلي في همومي التي استعصى عليّ حلها، وضاقت واستحكمت حلقاتها، وتلاطمت أمواج حيرتي بأحزاني، وقلبي ولساني معلق بك، وما ذهب عقلي وتشتت بجرأة أو استهانة مني حاشا لجلالك وعظيم سلطانك.. ولكن علمت نفسي المؤمنة المطمئنة أنني استحضرت ركوعي وسجودي في رفعة مجدك الذي لا يضام، وعجزت جوارحي أن تشكو لك ما حل بي فتسلل كربي إلى نفسي، وطرقت هواجسي أبواب عقلي، وكأنها تذكرني

أن أرفعها لجلال عظمتك لتكشف عني البلوى وتفرج همي وغمي، ولا كاشف لها من دونك.

سامحني يا رب إن اختلط عليّ الأمر في الصلاة، ولم أدرِ كم من الركعات قضيت لأسلم صلاتي ربما قضيتها على عددٍ أقل أو أكثر.. فما شرد ذهني إلا أن غلبني هاجس الضيق والكدر، وما أنا إلا بشر يملك بين جنبيه قلب أصابته الهموم وشغله مس من الأحزان، وانشغل عن أن يؤدي صلاته كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.. إلهي أنت تعلم أني ما وقفت بين يديك إلا وأنا ذليل في عزتك.. طامع في رحمتك.. لم يطلع على خلوتي أحد غيرك، ولم أتوسل إلا لوجهك الكريم.. إلهي يا من لا يصرف السوء إلا أنت، ولا مفرج للهموم إلا أنت، ولا كاشف للغيوم إلا أنت، ولا حي قيوم إلا أنت.. اللهم اصرف عني الكرب، وأقض عني الدّين، ولا تردني بعد صفر اليدين.

إلهي وكلتك نفسي المؤمنة بك الخاضعة لك، وليس لي سواك.. فاصرف عني من لا يخافك ولا يخشاك، واشملني بسترك وعفوك ورضاك وحُسن لقاك.. إلهي غُلقت أبواب الرحمة في قلوب عبادك، ولم يبق لي إلا بابك.. يا من لا يغفل ولا ينام.. يا ذا الجلال والإكرام.. اللهم خذني إليك وأنت راض عني، وهب لي

من لدنك الحسنى وزيادة، واختم لي بخاتمة السعادة، وبشرني في آخر عهدي من الدنيا بالشهادة تمن بها على العبد الفقير.. يا من إليه المرجع والمصير.

اللهم اجعل هذه «الوصايا» لمن بعدي في ميزان حسناتي، واجعل لي كِفلًا منها يباعد بيني وبين معصيتك، ويقربني من نعيم جنتك.. اللهم عاملني بما أنت أهلّ له، ولا تعاملني بما أنا أهلّ له.. اللهم اقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، واحلل عقدة من لساني، وتجاوز عن سيئاتي.

اللهم إنك أقرب لي مني، وأنت الغني عني وعن سؤالي.. اللهم تقبّل وقوفي بين يديك.. فإنك تعلم بحالي ولا يخفى عليك.. اللهم تقبّل صلاتي، واجعلها حُجة لي لا عليّ، وأغفر زلاتي، وآمن روعاتي، واكتب لي ميتةً طيبة، واعَذني من موتِ البغتة.. يا حي يا حي يا حي.

وصية أب لـ«ابنته» ليلة «زفافها»!

بسم الله ملك الملوك صاحب العز والقوة والجبروت.. الحي القيوم الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت.

معذرة يا بُنَيّتي أرجو أن تمنحيني بضع دقائق من وقتك، ولن أطيل عليكِ لأضع بين يديكِ وصيتي.. أسأل الله أن تكون بمثابة عقد من ياسمين، واقرئيها على مُهلٍ، وتدبريها بعين اليقين، فقد تكون هي آخر عهدي معكِ، وحسبي منها سعادتكِ في الدارين.. الدار الجديدة التي ستقبلين عليها بعد ساعات، وهى المطية للدار الآخرة التي إليها ملاذنا ومعادنا جميعًا، وهي التي خير وأبقى، والله المستعان وعليه التكلان.

أما بعد يا قرة عيني، وفلذة كبدي، وعترة قلبي، وريحانة روحي.. حين تُفَتّح لكِ أبواب بيتكِ الجديد، فادخلي بقدمكِ اليمين، واجعلي الله عز وجل قِبلتكِ فهو نِعم المولى والوكيل والمُعين، وبعد أن تفرغي من تبديل ثياب عُرسكِ.. عليكِ بالوضوء، وصلي خلف زوجكِ بعد أن تجعليه إمامُكِ ولا تسبقيه.

واخشعي في صلاتكِ فإنها من أعظم النِعم وأجلها، وليكن تواصلكِ مع الله بحبل متين من القرآن الكريم، وتزودي بالتقوى، والصبر الجميل، واعلمي أن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا، وليكن يقينكِ في دعائكِ، وتوّكَلي على القوي الغني الذي لا يغفل ولا ينام، واجعلي من بيتكِ آيات للجمال، وحدائق ذات بهجة ودلال، واجعلي الحياة لينة سهلة، ولا تزعجكِ توافه الأمور، وكوني كالنهر الدافق لأهل زوجكِ بالرحمة والمودة والعمل الصالح، وليكن قلبكِ عامر بالخوف من الله في جميع الأوقات، واعلمي أن عمرك الحقيقي هو أيام سعادتكِ وراحة بالكِ، وأن الكلمة النابية رجس وثمنها بخسٍ.

وأحسِني الظن بزوجكِ، واحترمي عقله، وقدِرّي رجولته، وإذا دخلتي مجلِسه اقرئي السلام عليه، وليشدو لسانكِ بأحب أسمائه إليه، وهذِبي ألفاظكِ، واخلقي له السعادة من باطن المِحنة، وكوني له الغوث والمدد، في اللوعة سلوة، وعند الكرب دعوة، وهدئي من روعه، ولا تفتحي أبواب الهواجس ولا الوساوس، وردِّي كيد الشيطان، وردِّدِي «إن كيد الشيطان كان ضعيفًا»، ولا تفتحي دفاتر الماضي، ولا تندبي على الأطلال ففيها أشباح مخيفة، وأجساد خاوية وجيفة.

إذا طافت بكِ مصيبة –لقدر الله– فلا يفجع قلبكِ كي لا تُنغِصي عليه عَيشه، ودعي سفينته تسبح على بركة الله، وتذكري رحمة المولى وغفرانه، واحمِدي الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحد، على لُطفِه في الضراء والشدائد.

وإياكِ والغضب فإنه حطب جهنم، وإياكِ أن تفتي له بشيء طاب فيه هواكِ، واعلمي أن عليكِ الحُجة، وإياكِ والدّين فإنه ذُل بالنهار وهّمُ بالليل، ولا تُكدِري عليه صفوه، فإنه مهلكة للنفس، ولا تُحمليه ما لا طاقة له به، ولا تقنطي من رحمة الله.

إذا اغترب زوجكِ من أجل لقمة العيش.. كوني له على البُعد عِزوته وسلوته، فكفى به وحدته، والغُربة كُربة، ووسادة من الجمر يتقلب عليها من خدٍ إلى خد، واصبري على الجوع إذا ضاقت به اليد، وليهدأ غضبكِ، وليسكن قلبك، وادفعيه إلى الأمام ليصل على يديكِ إلى مراتب النجوم، وليجد منكِ طيبًا قبل أن تتطيبي، وعيشي اليوم بالحكمة، ودعِي الغد للمشيئة فالله يرزق من يشاء بغير حساب.

كوني له كالفراشة، يكن لكِ خميلة من الورود، وكوني كالعطر في غِدُوه ورواحه كلما مضى عليه الوقت ازداد فواحه، واستقبليه بلهفة، وودعيه ببسمة، فما طار طائر ولا غادر عُشه إلا إذا هشه من هو أقوى منه، واجعلي الحياة بينكما مودة وسكينة، واعلمي أن

الصمت في الشِدة حزام الأمان، والخِصام مزمار الشيطان، فاغزلي من الفرح ستائر داركِ، ومن المرح حضرة جواركِ، ونقي ثوبكِ من الشك والغيرة.

اجعلي من زوجكِ أميرًا يكن لكِ مملكة، والعز في الطاعة، والذل في المعصية، وما أغنى المال من فقر في النفوس، والذهب ليس إلا بريق، وكل ما ذهب سراب، فاستعيني بالصبر، وخذي بالأسباب، واكتحلي بالقناعة، والرضا بما قسم الوهاب.. وتذكري غاليتي أن العين لا يملؤها إلا التراب.

إذا أخذ مشورتكِ فلا تتعجلي في رأيكِ، وحكِّمي عقلكِ قبل هواكِ، واستفتِ قلبكِ قبل عقلكِ، وامضغِي كلماتكِ سبع مراتِ قبل أن تنطقي بها فبعض الكلمات «رصاصاتِ» مُرة تقتل القلوب كل يوم ألف مرّة، وأطيعيه في البِر والمعروف، ولا تعصيه إلا فيما يغضب الله، ولا تتجسسي عليه، ولا تتحسسي لمواضع قدميه، وأشعِريه أنه ما أبهاه، وما أوفاه، وما أجمله، واعلمي أن وراء كل زوج «خائن» زوجة مهملة أو مُسترجِله.

كوني مشرقة كالزهور.. تملكين أجمل الألوان وأزكى العطور، وتوهجي في وجه زوجكِ كالنور، فما لذت الأعين ولا اشتهت الأنفس غير الزواج من بنات الحور، واملئِي قلبك بالصلاة على

سيدنا الحبيب، وعينكِ بزوجكِ يحفظكِ الله في بدنكِ، ويجعل الجنة تحت قدمكِ، وتذكري وصيتي، وعُضي عليها بالنواجذ، وحين أصبح واُمسِي تحت الأرض.. ادعِ الله لي أن يسترني يوم العرض.

وختامًا يا بُنيتِي:

أسأل الله عز وجل أن تنعمين بجنة وارفة الظل، وأن يُضفِي عليكِ قلادة السعادة والرعاية والهِداية والسرور والحبور على مدى الدوام، وأن يرعاكِ ويتولاكِ بعينه التي لا تغفل ولا تنام.

مع أرق وأجمل تحياتي:

وصية أب لـ«زوج إبنته» ليلة «زفافه»

وصيتي إليك يا ولدي الذي لم أُنجبه.. أرجو أن تقرأها بقلبك قبل عقلِك، وعقلِك قبل عينيك، وتذكرها جيدًا قبل فواتِ الأوان، واعلم بأن غدًا ستكون في مقامي هذا الذي لا أحسُد نفسي عليه الآن، بعد أن تأخُذَ مني عروسَ حياتي، وشامَةَ أحلامي، وعبيرَ حبي، ورحيق قلبي، وابتسامتي ودوائي، وأجمل براءَة حلّقت في سمائي، وأعذب الألحان ومقامات الزمان.

اليوم يا ولدي أعطيك أجمل هدية.. نصف روحي، وفلذة كبدي، وكنز عمري، وربيع ذكرياتي.. أعطيك المنبع الفيّاض للحب والسعادة والأُنس والسرور، وأعظم قلادة.. أُعطيك إياها على سبيل الأمانة، وإني لسائلك عنها يوم القيامة.. فخذ منها ما تيسر لك، وذر عنها ما تعسر عليك.

واعلم يا ولدي أن الزوجة الصالحة هبة من الله لمن يستحقها، وحارس الزوجة عقلها، فهي التي تعرف أقل وتفهم أكثر، وإذا أردت دليلًا على كلامي.. فليس أصدق من أنه (عندما تغيب الشمس، وتُظلم الدنيا تبقى الزوجة منيرة في القلب ومنارة في العقل، وألف صديق يوم الضيق).

اعلم يا ولدي أن في حياة المرأة ثلاث رجال: «الأب» وهو الرجل الذي تحترمه، و«الأخ» وهو الرجل الذي تخافه، و«الزوج» وهو الرجل الذي يحبها وتحبه، واعلم يا ولدي: أن ابنتي ستنتقل إلى منزلك اليوم، ولكنها ستظل في أهلها روح وريحانة أمها وأبيها.. فهي التي خلقت في بيتنا السعادة، وعلى قُدومِها حلت البركات بزيادة، ولم يغرب وجهها عن أعيننا، ولم تفارق ضحكاتها مسامعنا فهي الدرة الفريدة، وهي الليالي السعيدة، وهي أعذب قصيدة أمسى لها ليل، وأشرق عليها نهار.

هي باختصار:

ألف: الأُنس، وباء: البركة، وتاء: التوفيق، وثاء: الثراء، وجيم: الجمال، وحاء: الحكمة، وخاء: الخير، ودال: الدلال، وذال: الذوق، راء: الرحمة، وزاي: الزينة، وسين: السعادة، وشين: الشفقة، وصاد: الصبر، وضاد: الضمير، وطاء: الطُهر، وظاء: الظِل، وعين: العظمة، وغين: الغنى، وفاء: الفرح، وقاف: القبول، وكاف: الكرم، ولام: اللهفة، وميم: المدد، ونون: النور، وهاء: الهداية، و واو: الوقار، وياء: اليُسر.

إحذر يا ولدي من مجالس البطالة والعطالة، وأمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وليكن رصيدك في ثقتك بزوجتك، وكن

لها واحة من البر والحنان، وفرج عنها قلقها، ولا تتصيد لها هفواتها، ولا زلات لسانها.. فالدنيا لا تحلو بغيرها، ولا تنسَ أنها كانت حبك الأول الذي كُتب على لوح قلبك، واسمها أنشودة على لسانك، وتحرك بها وجدانك، وشجى بها فؤادك، وبدأت بها تاريخ ميلادك.

ولا تنسَ يا ولدي: أن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحُمق، وأوحش الوحشة العُجب، وأكرم الكرم حُسن الخلق، واعلم بأن الرحمة أعمق من الحب، وفيها قمة التضحية، والتسامح، والعفو والكرم.. فكن لها سحابة من الرحمة تظلل بها حياتها.

ولنا في سيدنا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة: (حبب إلي من الدنيا: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة)، قال عليه أفضل الصلوات: (ما أكرم النساء إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم)، و (استوصوا بالنساء خيرًا)، و (المرأة ريحانة لا قهرمانة).

أختم وصيتي إليك يا ولدي بأن تحافظ على ابنتي، فهي فاتنتي الساكنة في رحاب قلبي وهي التي منحتني السعادة بلا حدود وكانت لي مفاتيح كل باب مغلق، مرحت فوق بستان فؤادي، وغردت فوق ذكرياتي، وأعطت لحياتي معنى «وردة ومزهرية»، وملأت الدنيا من حولي أنشودة حنين ستظل بين العاشقين لآلاف السنين.

هي يا ولدي أُم أباها التي سكنت القلب، وتنزهت في مقلة العين.. أدعو الله أن يكلل زواجكما بالسعادة وراحة البال وأن يرزقكما الذرية الصالحة، وأن يحفظكما من كل شر مفاجئ، ومن كل عين فارغة، وأن يربط الله بينكما بعقد من يا سمين.

اللهم آمين

إلى ولدي

وصيتي إليك يا ولدي ربما تكون هي الأخيرة فلم يبق لي غير الكلمات بعد أن حال اللقاء بيني وبينك، ولأول مرة لا أدري يا ولدي هل ستصلك رسالتي، وهل ستقرؤها أم أنك قد صُمت عن كتاباتي وصمَمَت أذنيك عن مناداتي إليك.. مشاعري اختلطت فيها الأحزان بقناديل الشموع، والورود بمناديل الدموع، لأول مرة أستجمع مخاض الكلمات من رحِم العـُقر الذي أعيشه لأقص إليك أحوالي، وما آل إليه مآلي!

أنا يا ولدي لا أستعطفك ولا أرجو منك لِين قلبك.. فإن كان قد نسي من أنا.. سأذهب إلى حيث سبيلي وإن كان قد قسِى فا الله حسيبي ووكيلي، واعلم يا بني إني في ضائقة وشدة لا يعلمها إلا من ابتلاني بها ومن صبرت في سبيله واستعنت به عليها، واعلم أن من تراه أمامك الآن ما هو إلا فتات جسد هدَّه طول المسير، وأضناه بأس هذا المصير، وقريبًا يا ولدي لن تراني فقد نسجت أيدي الردى أكفاني.

يا من صفعتَني بكلماتك، وأنا الذي كم رتلت على رأسك آيات الرُقيا لأرقيك، وكم ذقت من المُر جبالًا لأسقيك عسلًا سائغًا زلالًا، أنا

الذي تغربت لأجلك لسنوات طوال ثقال، وتركت خلف ظهري أغلى ميراث أبي وأمي لأوفر لك لقمة العيش الحلال، اعلم أني مشيت فوق الأشواك وحيدًا لأجلك، وتحديت الألم والأقدار لأجلك، وأكملت سيري دون أن أدري إلى أين سيأخذني المشوار لأجلك، كان بودي أن أضع بين يديك كنوز العالم وسواري كسرى وقيصر لكن يا ولدي هذا رزقي الذي قدره الله لي وأعانني عليه، وما تأففت ولا لغوت لعلمي ويقيني بأن لا حيلة في الرزق ولا شفاعة في الموت.

أقسم لك يا ولدي ما ذاق قلبي في الهوى طعمًا فاق نجاحك، ولا انتشت روحي طربًا إلا لمُزاحك، وما لهوت وما ضحكت ببعادك، واعلم أن القلب الذي طعنته بكلماتك لسوف ينزف حتى يفارق الحياة، غدًا أو بعد غد يا ولدي ستميل الشمس إلى المغيب، وحينها انتبه جيدًا سينهار منك ما تبقى من هذا الرجل الذي تعتبره الآن غريبًا عنك.. سيودع الدنيا ويبيت ببيتك آخر ليلة مُسجّى على سريره، وتأخذه الرفاق في الظهيرة إلى دار البقاء.

اعلم يا ولدي أنك لن تستطيع أن تشاركهم حمل جثماني، لكنك ستنظر إليهم وهم يهدهدون في المسير، ودموع العالم في عينيك، وأحزان الدنيا بقلبك.. سيأخذوني بعيدًا عنك حيث لن تستطيع أن تراني عينيك.. لكن بربك قل لي من سيجيبك عني إن كان قلبي

راضٍ عنك أو غاضب عليك.. ستراودك آلاف الإجابات، وستنتظر واقفًا بالباب تسترجع ما كان منك ومني.. ويعودون بلا أبيك.. حينها ستصبح في عُزلة تمارس الانتظار الكئيب، وحين يأتيك المساء ستذبل الورود بغرفتك، ويزورك الليل الطويل.

ستشتاق إليّ.. ستقلب في أوراقي وكتاباتي، وستبحث عن سطر من كلماتي، وستعجب حين تجد حروف اسمك بين كل سطر كتبته قبل وفاتي.. سيلُفك صقيع اليُتم، وتخفق الروح اشتياقًا إلى صورتي.. سترتجف يداك وشفتاك.. وستنهمر الدموع، وستعلم وقتها يا بني أنك ظلمتني كثيرًا كثيرًا

والله يا ولدي لقد انفلت مني العمر.. رغم طول ومرارة المشوار.. وكنت أحسب أن الزمن سيتوقف بي.. وستضحك لي الدنيا وتحلو ولو قليلًا.. لكن للدنيا أهلها تعرفهم ويعرفونها جيدًا هم أهلها وخاصتها.

فإن قـُدّر لك يا ولدي أن ترى آخر لحظات عمري، وأنا أودع دنياك فا ستذكرها جيدًا وتذكرها.. واعلم بأنك سوف تَرِد على هذا الحوض وذاك الكأس المرير.. فلا تجعل قلبك ودموعك تتجمد.. فإني لست بمخلّد.. كل ما تبقّى لي من العمر ربما يوم أو أسبوع أو شهر أو عام.. وسأرحل بعيدًا عنك.

لقد اختفي الرجل «المنهك» الذي كان يوزع البسمات والفرحة دون أن يعرفها.. الرجل الذي تعبت قدماه من المسير حافيًا على جسور الأشواك.. الرجل الذي أرهقته وأتعبته السنوات العجاف.. الرجل الذي هان عليك وده، الرجل الذي تألم لألمك، وبكى لبكائك، وخاف عليك أكثر منك.. الرجل الذي أحبك قبل أن تأتي إلى الدنيا، وأنتظرك بأفراح وأهازيج العالم كله.. ذاك الرجل الذي تحطم قلبه بكل سهولة.

إن سألوك عني قل لهم: «كان مسكينًا، وقل لهم أني مارست أصعب المهن.. مهنة البكاء والدموع والصراع مع الآه، ومن فرط حرصه عاش مُشتت الانتباه.. ما بين المرارة والصمت والسهر والشكوى لله، وقل لهم أني أحببت الليل الذي رأيتك فيه قمراً منيرًا، وأحببت قلمي الذي كتب اسمك كثيرًا».

وآخر كلماتي إليك.. رجاءً يا ولدي إن لم تستطع أن تداوي الآخرين.. فلا تتراقص طربًا على جراح المساكين.. تذكرني، وأطلب منك دعوة قل: «اللهم أرحم هذا الرجل الذي عاش غريبًا، ومات غريبًا، ودُفن غريبًا.. فطوبى للغرباء».

محكمة «الآخرة»

سبحان من خلق الخلق من طين الأرض ويعيدهم إليها.. سبحان من يرثها ومن عليها.. سبحانه سبحانه ولا تقال إلا له.. ما أكرمه وما أحلمه.. سبحانه مُقلب القلوب والكون بين أصبُعيه.. وكل أمرٍ كبير أو صغير مُوكلُ إليه.. سبحانه.. سبحان من يجير ولا يجار عليه.

هل خلوتَ بنفسك يا رعاك الله واسترجعت شريط عمرك.. على ماذا كنت وكيف أصبحت؟، وإلى أين المصير؟، وما بعد انقضاء العمر اليسير؟.. هل تفكرت فيما جمعت ليبق لك بعد مماتك؟

سبحان من خوف بالموت كل نفس على ظهر الأرض ومن في حضن السماء.. سبحان من قضى بالموت على عباده، وأجَّل لكلِ ساعته.. فمنهم من أمهله، ومنهم من باغته.. ليتعظ الأحياء من موتاهم إذا أدرك أيهم أحدهم وهو على مشارف السكرات إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.

عزيزي القارئ: استحضر عظمة الله في كل ما تراه، ولا تغتر بقوتك، ولا مالك، ولا سلطانك ولا عزوتك فكل ما حولك ظل سيزول، وستعلم حين تتبدل ملامحك ويتسلل إلى شَعرك الشيب

ثم تشيب ويعتري وجهك الكِبّر ويدُب في جسدِك العَجَز والكدر إن العمر قد انسلّ منك، وكأنك ما لبثت في أهلِك غير سنينٍ ثم جئت على قدرٍ.. والله ما أهون الدنيا وما أتعسها، وما أحقرها، وإن كانت لهو ولعب وزينة وتفاخر فقد رقت لأهلها بضع ليالِ ليتمتعوا فيها، ويتصارعوا عليها، ويركضوا فيها ركض الوحوش في البرية، وإنها والله لـ «مَطِيّة»، وكل منا عابر لعاقبة أمره.. ثم بعد ذلك موت ثم بعث ونشور ثم وقوف أمام يدي الملك الديّان ليُحصل ما في الصُدور.

إن خسرت قضية الدنيا، فلا تضرب كفًا بكف، ولا تقعد ملومًا محسورًا، وتذكر قاضِ السماء المتفرد بالكبرياء الذي لا عن يمينه ولا عن شماله معاون، ولا يخطئ ولا يحيد، ولا يؤجل ولا معقب، ولا يُنقض حكمه ويفعل ما يريد.. وسبح بحمد ربك العدل الذي حكم على كل حي بالموت.. فما لأحد عنه محيص.. فكم أثكل خليلًا بفراق خليله.. وكم أيتم ولدًا وشغله ببكائه وعويله.. فهو لا يبدي بعد رحيله ولا يعيد.. هدم بالموت مشيد الأعمار.. وحكم بالفناء على أهل الدار.. وأوحش المنازل من أقمارها ونفَّر طيور الأوكار من أوكارها.. ولا لوم ولا عتاب.. فالمليك والمملوك والغني والصعلوك تساوت قبورهم وعفَّر وجوههم التراب.

سبح باسم ربك الحكم العدل الذي ساوى في الموت بين الصغير والكبير.. كهلهم ورضيعهم .. جميعهم إلى القبلة مصطفون.. في بحر الأجداث إلى يوم يُبعثون.. أفلا يعتبر العاقل بمصرعهم، وقد أفناهم الموت بأجمعهم، وفرَّق شملهم ومزَّق أوصالهم، وجعل دميمهم وجميلهم وغفيرهم وأميرهم في القبر رميم.. فكيف يغتر الإنسان وهو عالم بأن الله جل في علاه يُملي للظالم ويمهله حتى إذا أخذه لم يفلته ولم يكن عنه محيد.. أما كانت أنفسهم بذلك عالمة، وهي من الموت غير سالمة؟.. وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد.

يا أيها الظالم ويحك.. تنبه لنفسك، وأعمل لما تلقى غدًا.. فلن يكون هناك مهل ولا أجل .. فالموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل.. إن كنت يا صاح نائمًا لا بد في الحشر تنتبه إذا رأيت الخلائق حُفاة عراه بين يدي الله جل في علاه، وقيل اقرأ كتابك كفى بنفسك شاهدًا، وقد أتيت إلى جلال الموقف بسائق وشهيد.. فدع دموعك تجري قبل المقال لمن عصى.. فيا لهول المرجع وسوء المصير.. ألم تكن قبل تدري يا صاح أن الحساب عسير.. ويحك كل القلوب قد لانت لكن قلبك قد قسى.. كأن قلبك أضحى بين القلوب وقد نسى قوله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥ ﴾[آل عمران: 185].

اقترب مني

حَريُ بي وقد انتصف العمر مني، ومالت الشمس إلى المغيب.. أن أقدّم لك يا بني نصيحتي وأنت في عمر الزهور، وربيع أمانيك على المشارف، والدنيا فاتحة لك الأبواب.. فقط أعيرني انتباها وصبرًا إن أطلتُ عليك رسالتي.. فلن ينصحك بعدي أحد.. لأني أنا الذي أحببتك أكثر مني، وأنا الذي انتظرتك بأفراحي وأهازيجي.. قبل أن تأتي إلى الدنيا.. فخُذ عني كلمات أنت أحوج إليها من بعدي.

أنا اليوم جليسُك.. أسامرك وتسامرني.. وغدًا ربما لا يقوى لساني عن الحديث أو يداهمني مرض خبيث.. أو يُغيب مني عقلي.. استمع لي، واستحضر يا بني عظمة الله فِـيّ.. الذي صيرني من بعد ضعف إلى قوة، ومن بعد قوةٍ ضعفًا وشيبا.. وأعلم أن ابنك يراك فعاملني بما تحب أن يعاملك به.. فالدنيا دَينُ إلى أجل مُسمى ورهانُ مقبوضة.. فاتقِ الله وكن بارًا بي إذا وهن العَظمُ مني واشتعل الرأس شيبا، وإن طال عمري بمرض ميئوس منه فاصطبر، ولا تتعجل رحيلي.. فكل عُمر في كتاب.. وكل أجل معلوم .. فقط أدعُ الله أن يخفف عني، ويجعله كفّارة لي.. حتى ألاقي وجهه الكريم

وقد غُسِلتُ من ذنوبي.. وما بيني وبين خلق الله.. فإن الله وسيط بيني وبينِهم يوم القيامة.

اقترب أكثر.. إنْ ضعف البصر أو كف مني.. ولا تتضجر ولا تتوارَ خجلًا من أصدقائك.. فمن وهبني «حبيبتاي».. قد استردهما لأمر يعلمه.. وإني على خطبي لصابر ومسترجع، وكن لعيناي الضياء.. وإن تمايلت رأسي واهتزت فلا تنزعج مني.. ربما قد ثقُلت عليّ أفكاري أو شردتُ بعيدًا عن عالمك فارتج عقلي، ولم أعي أنها دوامة تصيبُ بها من ثقُلت همومه.. فقط التمس لىّ العُذر.. واعلم يا بني أني ما رأيت بعمري زينة الدنيا إلا في عينيك.. وإن أثقلتُ عليك لا تغضب ولا تهرب.. فإن الله سيجزيك عني الجزاء الأوفى.

عفوًا يا ولدي لا أسمعك.. فأعد عليّ ما قلت مثنى وثُلاث ورُبـاع.. فإن لم يصلني صوتك فاعلم بأني قد أصبت بالصمم ولا ريب ولا عيب في ذلك.. فقط اقترب مني، وسأقرأ عينيك.. أو يكفني منك ابتسامة على شفتيك.. سأعي ما بهما.. فثغرك هذا لأجله شقِيت عمرًا، وتغربت دهرًا لأطعمه حلالاً طيبًا.. وذابت فيه متاعبي وكان لي أشهى الأماني حينما كان يضحك لي كانت تزول ابتسامتك جبال أحزاني.. اقترب مني، وإن لم تساعدني قدماي على المسير فاعلم أني أصبحت عجوزًا.. اقترب مني بماء وضوء..

سيطفئ منك غضبًا.. إن كنت لم ترضَ عني أو أغضبك مني تصرف غير محمود لديك.

إذا ارتعشت يداي فلا تخجل.. هذا قدري.. فقط خُذ بهما يستندان إلى منكباي كحال تشهّدي في الصلاة، واذكر الله.. اذكر الله.. فدوام الحال من المُحال، واقترب مني.. ضع يدك على يداي اربط عليهما، وإن لم أقوَ على تناول مائي ودوائي فساعدني بيديك فلن أجد حنانًا أكثر منهما، وفيهما من البركات ما يغنيني عن غيرك، وترفَّق بي يا ولدي.. ولا تتعجل أن أُفرغ من طعامي.. فقط أمهلني مزيدًا من الوقت فربما أني قد فقدت أسناني، وإن تساقط من فمي لُعابي.. فلا تشمئز يا ولدي.. فلن يزيد ما سقط مني في بِطاح أرض الله شيئًا.. وجفف فمي بيمينك.. وأعلم أنني ما طاب لي المِسك إلا من ريقك.

وإن أهذيت بكلامٍ غير مفهوم.. فاستمع إليّ.. ربما أنطقني الله بحكمة في كلمة لم أعي لها بالًا.. وأراد الله أن يذكّرك بها أو يعلمك إياها، ولا تتأفف من هذياني.. ولا تنعي حظًا يا ولدي، ولا تضرب كفًا بكف.. فقط أحتاج حنانك.. اقترب مني.. وتظاهر بأنك تُحدثني.. أشعِرني أني ما زلت ذات قيمة، وأنني ما زلت حيًا.. واغسل وجهي بماء تطيبه يديك، واسقني وأطعمني حلالًا طيبًا.. فإني مُقبلُ على الله بطعامك.. وارتقب يوم يأتيني التراق،

وتلتف مني الساق بالساق.. اصحبني إلى فِراشي.. وحين تحضرني السكرات وجّهني إلى القبلة التي اعتدت عليها، وذكِّرني الشهادة.. عسى أن يكون وقت أذان أو عِبادة، واسقني من رحيقِ يدك.. وضع راحتك على جبيني برفق.. ولا تبكِ يا حبيب العمر.. لا تجعل آخر عهد ما بيني وبينك «دمعة» على فراق.. وسُد عني ديوني أو تكفَّل بها لأتحلل منها قبل أن تواريني التراب.

وختامًا: حين أموت ستأخذ مكاني، واعلم أنك أصبحت إلى قبرك منك أقرب.. فيا كنزي الذي ادخرت، ويا أعز الناس متى التلاق.. عيناك تدفئان روحي.. تبرأ فيهما جروحي.. إلى اللقاء.

في «الخريف»

سبحان سامع الصوت، وسابق الفوت سبحان خالق الموت.. ذلك المخلوق الصامد الغامض.. الغريب العجيب.. مُدرك الغايات، وكنز العِظات هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وقاهر الذات بالذات.. مُكدِّر الملوك والقياصِرة، وقاصم ظهور الجبابرة.. ذاك الزائر بلا نقير.. العابر المُغِير بلا نفير ولا نذِير.. المُمِيت بإذن الله لخلق الله من جِنِه وإنسِه، والقابض لروحِه إذا ما أمره الله به.. ليتذوق من نفسه.. وما قدمت يداه بغرسه.. ويذُوق ما أذاقه لكل حي من مُر كأسه.. وسبحان ملك المِلوك مالك المُلك والملكوت الحي الباقي الذي لا يموت.

نصيحتي لمن دخل «خريف العمر» أن يُحسن بناء داره التي انشغل عنها كثيرًا بـ«دار الدنيا»، وأن يرطب لسانه بذكر الله، ولا يغفل عن استغفاره، وأن يستحضر لقاء الله إن أيقظه الصباح، أو أدركه المساء فالموت قادم قادم لا محالة، وليتساءل في نفسه مستحضرًا جلال الموت في كل وقت وحين:

تُرى يا موت أين أنت منا.. أقريب أم بعيد؟

وأين نحن منك.. تُرى كيف بكأسك ومذاقك؟

ليتك تخبر السُكارى عنك.. لنستفيق قبل أن نُلاقِيك.. تُرى يا موت كيف صورتك.. وما هيأتك؟

نشهد أنك لا محالة قادمٌ إلينا.. ونحن مقبلون عليك.. وأنك حقٌ علينا.. وإنّا ماضون إليك بلا شك لا مهرب ولا منجى ولا ملجأ إلا لك.

عجبًا لهذا الكأس.. وعجبًا للنديم.. ذلك الطائر العجيب الصنف الذي لم نعرف له وصف.. الذي يخترق السُحب والبحور، والظلمات والنور، والحُجُب والدُور وأفخم القصور والسجون والحِصُون.. ذلك الذي أرهق أذهانُنا، وأزهق عُظماؤنا وكُبراؤنا، ذلك الذي غدا وراح، وقبض ما قبض من الأرواح، ولم يخلُف وراء ظهرِه غير البُكاء والنُواح.. ذلك الذي ما سهى، وما لهى، ولم ينم ولم يتوقف ولم يتأفف، وقبض ما أومِر به ولا أعذر ولا أنذر، وما قدّم وما أخر.. يا لهول حضوره.. فلا أسوار تمنعه، ولا حرَّاس تردعه.. ولا أُذنُ واعية تسمعه.

وليعمل الإنسان ألف حساب لهذا المخلوق الشرس الصِنديد الذي خضعت لهيبته السلاطِين وملوك الأرض.. ذلك الدؤوب الذي ما رقت له قلوب.. ولا لدنه صاحب ولا مصحوب.. ذلك الشديد العتيد الذي لا يخطِئ ولا يُحِيد.. وما بين الكأس والنديم.. تطوى الصحف وتجف الأقلام.. وكم من علامة استفهام؟

سؤال بلا جواب.. لم يجب عليه من غاب.. ولم يخبرنا عنه الصحاب والسابقين ممن سبقونا وولجوا من بوابة الحق اليقين.. ذلك السؤال الذي تحيرت فيه العقول.. ليس لتطفل أو فِضول حاشى لله.. ولكن الذهول وقف حائلًا بيننا وبين ذاك السؤال الذي شابت له نواصي الألباب.. وما وجدت له من باب.. تُرى بمن سبقونا كيف تذوقوا كأس الموت.. وهل كان كضرب السيف على الرقاب؟

هل تقطعت منهم الأمعاء والأوصال.. أم كان وقعه أشد من حد النِصال على النِصال.. وهل كان مريرًا وثقيلًا كالجبال؟

الموت يا «عزيزي» لا ينذر أحد فليعمل كل منا لهذا الكأس الذي لم نعرف له طعمًا ولا مذاقًا.. ولم يُنبؤنا به من ذاقه.. وهل لأحد قد راقه أو تاقه.. وما لأحد قد اشتاقه.. تُرى كيف مذاقه؟

لكن الجزم بعين اليقين أن ذاك الكأس شئنا أم أبينا حتمًا سنتجرعه، ولن يكون مستساغًا.. ولن يكون مُحالًا مُحلى، ولا سائغًا ولا شهدًا ولا عذبًا ولا ماءً ولا زلالًا.

فمنا من سيتذوقه وهو مستلقٍ على سرير المرض اللعين.. بعد طول سنين وملل وأنين، ومنا ممن سيتذوقه وهو غارق في ذاته وملذاته ما بين أقداحه وخمرِه، وأفراحِه وطبلِه وزمرِه على حين غفلة من عمره، ومنا من سيتذوقه بعد أن يُرد إلى أرذل العمر، ومنا

من سيتجرعه على معصية بين يدي غانية ويفتضح أمره، ومنا من سيتجرعه على حسرة أو عثرة أو حادث أليم، ومنا من سيتجرعه وهو كاظم مُلِيم، ومنا من سيتجرعه غريقًا في عرض بحر هائج طوى من قبله الحيتان والأبدان، ومنا من سيتجرعه في حريقٍ بلغ به مبالغ العنان.. ومنا من سيتجرعه على عُجالة، وتتقطع أحباله ومنا من سيتجرعه على مهلٍ وتتمزق أوصاله، ومنا من سيتصبب عرقًا ويلجمه إلجامًا، ومنا من سيلقاه عذابًا وغرامًا.

لكن تُرى كم سيطول المذاق.. أو تجرع كأس الفِراق.. هل برهة أم دقائق أم ساعات أم أيام أم شهور أم سنوات؟

تُرى هل سيطول بنا الخريف.. وهل سيبدأ تذوق أول جرعاته على يد النديم بشكله المرعب المخيف أمام جسدِ هزيلِ ضعيف؟

أمنت بك اللهم يا مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي.. اللهم إني أسألك بقدرتك علينا، وذلنا وخضوعنا وانكسارنا لعظمتك أن تذيقنا كأس الموت الحق وأنت لاطف بنا، وأسألك بعرشك الذي لا يُضام أن تسقينا ذاك الكأس ما بين تسبيحه وتكبيرة.. أو بين صيام وقيام.. أو بين توبة وتلاوة.. أو بين دعوة وسجدة مستجابة.

اللهم إنّا قد لهونا وكذبنا، وأذنبنا وقصّرنا، ومضى منا العمر يا صاحب الأمر.. اللهم إنّا أنخنا رقابنا ببابك.. خائفون مرتعدون

بجنابك.. نخشى غضبك وعذابك.. اللهم ارفق بنا وتحنن علينا، وترفّق وسامح من غفا وأخفق، وتجاوز عن جُل المعاصي والذنوب.. لمن أشرف على الغروب، ولّطف الكروب، وأجبر كسر القلوب التي تلهج بعفوك يا جميل المغفرة.. يا من خضعت له الرقاب، ولم يغلق لله باب، وتجاوز يا رب عن الزلات، وأكتب لنا صادق التوبات، والتثبيت والثبات قبل الفوات، واختم علينا بالصالحات، وهوّن السكرات قبل الممات.. اللهم اجعل الكأس وندیمه يا ربنا يا ربنا بردًا وسلامًا على قلوبِنا.

وصلِ الله وسلم وزِد وبارك على سيدنا الحبيب محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم.

مضى قطار العمر

بسم الله الواحد الأحد الموجود لا تأخذه سنة ولا نوم، سلاطين الأرض يتعاقبون، وما عَمّر من مُعَمِرٍ بلغ ما بلغ من قصوره ومملكته إلا وأهلكته السنين، وكانت خاتمته آية للعالمين.

يا أهل الحكمة بقي من الزمن القليل، ومضى قطار العمر الطويل، ولن يعود بيوم انقضى، ولو اجتمع زعماء وملوك العالم بأسره بعضهم لبعض ظهيرا.. ففروا إلى الله ولا تركنوا إلى الذين ظلموا أنفسهم فتمسكم النار، هذه تذكرة أُذكّر بها نفسي وإياكم.. دع عنكم فتنة الدنيا وزخرفها ومجالس السلاطين.. لا تمدحوهم بما ليس فيهم، ولا تروجوا لهم بضاعة.. فليسوا بشجرة خُلدٍ تستظلون بها من حر الدنيا، والود بينهم متاعه قليل، ولا تقولوا على الله كذبًا، بل قولوا قولة الحق، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، ولا تخشوا إلا الله جل في عُلاه فإنكم غدًا ملاقوه، واتقوا فتنة الدنيا، فمن روَّع العباد أماته الله رعبًا، ومن قتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا.

يا أهل الله وخاصته.. اعلموا أن الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار البقاء، وما قدمتم من فلذات أكبادكم الذين جاهدوا لإعلاء كلمة الحق فارتقوا إلى رحاب الله فهم شهداء.. تقبلهم الله منكم بقبولٍ حسنٍ وزكّى نفوسكم فأرخى عليها منازل الصبر الجميل فمنكم من استقبل بشرى الشهادة بالاسترجاع إلى الله، ومنكم من استقبلها محتسبًا أجره على الله، ومنكم من رأى مقاعد الصِدق فاشتم رائحة مِسك شهيده.. وكل وعد الله الحُسنى.

نسأل الله تبارك وتعالى في علاه أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا ويرزقنا احتنابه، وألا يأخذنا بما فعل السفهاء منا.. اللهم شفِّع فينا سيدنا الحبيب محمد (صل الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء وارزقنا شفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

حُسن الختام

سبحان من له العزة والدوام.. سبحان من يسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته.. سبحان من قضى الموت على كل حي، ولا يبقى غير وجهه الكريم.. سبحانه وإن طال بنا الأمد أو أمد لنا من العمر مدًا فلا بد من الولوج إلى بوابة الانتظار.. كم من الوقت لا ندري ولا نعلم، ولكن ما ندركه جيدًا أننا سنقضي أمامها مُكوث بلا صوت ولا حراك ولا ضجيج ولا تناحر في مشهد مهيب تحت الجنادل والتراب، لا يعلم بنا أحد غير ربنا الواحد الأحد الفرد الصمد.

لا شك أن الله جل في عُلاه قد لطف بنا بأن كتب على الكل الفناء حتى لا يرى أحد هذا المشهد المرعب الأجساد بالية والعظام نخرة مُلقاة لا قيمة لها بباطن اللحود، ومن فوقها رياح عاتية وأمواج وزمهرير وشتاء وصواعق ورعد وبراكين وحِمم والظلام قد حل، واقتلعت الجبال من رواسيها وانهالت من قممها وشواهقها فلا متعالٍ ولا عالٍ غير وجه الله الكريم، ولا متفرّد بعضال المآل، وارتجاج الأرض ومن عليها غير جنابه وهيبة سلطانه جل جلاله وتبارك اسمه.

يا أهل الدنيا أعماركم ليست إلا لحظات وتنقضي، فلا تتصارعوا فيها كـ«الوحوش» على «جيفة»، وابكوا على ما ضاع من أعماركم، وتوبوا إلى الله، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، واغضبوا لحرماته، واعلموا أن الدنيا دار فناء وعناء، وأنها «مطيّة» الآخرة، وأن جميع الخلائق سيموتون ويُقبرون في «برزخ» لا يصاحبهم فيه غير صحائف أعمالهم وقد طوقت في أعناقهم.. «برزخ» كتب الله له من الزمن ما أفزع العقول.

الموقف جَد عظيم، والخطب جلل.. «برزخ» فيه من الأهوال ما لم يتحمله أو يدركه عقل بشر.. أرض تهيج وتموج بأمرك يا الله كأنها زبد بحر يلاطم بعضه البعض، ونحن أشتات أو أشباه جثث هامدة رقاد بها أو عليها.. أرواحنا المسكينة التي نازعتك في سلطانك هي الآن في قبضتك أمسكتها علينا حتى لا تعذبنا بما قضيته في هذا العالم الآخر من مجريات وأهوال يشيب لها الولدان شيبا.

احذر يا رعاك الله وأذكِّر نفسي الغافلة أننا راحلون من هذه الدنيا الموجعة بلا زادٍ ولا أمتعة.. وما أغنت الفرحة أو اللذة عن صاحبها من شيء.. ولن ينفعنا ندم.. غدًا سنرحل كما رحل من سبقونا عنها، ونكون حطامًا.. ثم بعد ذلك عدم.. ثم نسيًا منسيا، وما كتب الله لبشر من قبلنا الخُلد، وإنّا والله لمقبلون على دربٍ ليس بهين، ولا

بيسير.. هذا نذير، ولسوف نحاسب حسابًا عسيرًا، سبحانك يا الله والجميع قد هلك .. سبحانك ما أحلمك وما أمهلك.. سبحانك ولا تقال إلا لك.. جل شانك وعظُم سلطانك.. سبحانك سبحانك.. إنا لك وإنا إليك راجعون.

اللهم احسن خاتمتنا واجعل صلاتنا خير بضاعة، وذكِّرنا يا رب بالموت كل ساعة.

الرحلة «الأخيرة»

سبحان الله مكور النهار على الليل، ومكور الليل على النهار فالق الإصباح، بقبضته جميع الأرواح.. سبحانه وتعال العالِ المتعال، الذي سير السحاب الثقال، المنزّه عن القيل والقال.. الغني المغني الكافِ عباده عن ذل السؤال.. الجبار المتكبر الذي خضعت لعظمته رقاب الفطاحل والعضال.. جل جلاله وعلا شانه.. سبحانه سبحانه ولا تقال إلا له.. له الشكر والحمد على ما أخذ وأعطى، وإليه الرجعى والمنتهى.

«التوبة.. التوبة» يا نفسي لم يعد في العمر غير أنفاسٍ معودة، وأقدامٍ مهدودة من المسير، والموت على الأبواب، وما مضى من الأيام سراب، واعلمي يا نفسي أن كل شيء يفنى ويرحل تحت الثرى، وتتوقف القلوب التي لهجت بما حرصت عليه، يفرقنا الموت، ولكن يبقى الشيء الطيب الذي نتلمسه في قلوبنا وفي ذاكرتنا، نحن من أهل الغفلة والنسيان نعتقد أن من رحل هو ورقة سقطت من شجرة نتوقف أمامها ننعيها بعض وقت، ونقرأ فيها من حياتنا بعض سطور حتى إذا يبست انصرفنا عنها وألهتنا الدنيا، وكأن الورقة التي كانت يانعة مخضرة بالأمس لم تكن شيئًا مذكورًا.

يا الله ما أقسى القلوب التي بكت بالأمس، وروت الأرض بدموعها حزنًا على فراق عزيز.. اليوم انصرفت إلى حال سبيلها، ولم تدرِ أن غدًا هي أول من سيلحق بها، وإن الدنيا لقصيرة مكيرة فلا يؤمن بها إلا من ران على قلبه فأغلق خلف من مات الستار، وفتح لدرب الهوى ستار آخر، وكأن الحياة الدنيا مسرحية ما بين الهزل والجد.. وحسب الجاهل أن من رحل أفل.. وأن من فات مات.

أنا وأنت وهو وهي وغيرنا لن نخلد في الحياة، شئنا أم أبينا كلنا راحلون إلى الله فرادى لا نحمل غير أثقالنا واثقال من عمل بذنوبنا، وإن القبر لضيق لن يسع أحمالنا.. يا لعظامنا التي ستنضم ضمة تختلف منها الضلوع لن يهون آلامها بكاء ولا آهات ولا دموع.

يا الله سامحنا ولا تؤاخذنا بما نسينا أو أخطأنا.. أنت أعلم بنا منا، وأنت الغنيُّ عنا.. يا رب إنّا نخافك كما نخشاك بالغيب، ونعلم أن ذنوبنا كثيبة مهولة لو نزلت على الجبال لتصدعت، ولو نزلت على البحار لتعكرت، ولو نزلت على الأرض لبُورت.

يا رب أعِنّا.. قلوبنا مقبوضة، نرى الموت ليس ببعيد عنا إنه على الأبواب، ولم يعد في العمر عودة لنعمل صالحًا فيما تركنا.. يبست أقدامنا وعجزنا عن المسير، وانقطع الأمل فلا عمل عاد يسعفنا، وإنّا لذاهبون لموعد لن نخلفه عائدون إليك

شعثاء ضعفاء شابت منا النواصي، وابيضت منا العيون، ووهن منا العظم، وخان الأهل الكهل إذ حل المنون، والرجاء في رحمتك يا واسع المغفرة.

اللهم لا مهرب ولا مفر منك إلا إليك يا أمان الخائفين، ويا ملاذ المستجيرين.. مالت الشمس التي كانت رائعة النهار إلى المغيب، واكتحلت الديار بالأنين والنحيب، وترقب الحبيب وداع الحبيب، وانطوت الصفحات، وفاضت العبرات، وزاغت الأبصار.

إنها الرحلة الأخيرة الثقيلة المريرة بعد رقاد ضيق وحساب في القبور عسير، وتُنتهش الأبدان تتكالب عليها الديان من كل مكان، وما تجدي الأكفان ولا العطور.. يا الله.. أدركنا يا الله، ولا تكلنا لما أذنبنا أو نافقنا يا الله.

هذه بعض كلمات أو سطور من رحلة العمر الشقي، ربما يأتي يوم ويقرأ موضوعي زميل أو صديق أو قارئ عابر فيجد فيه ذكرى لي ويترحم عليّ:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته .. يومًا على آلة حدباء محمول

ما نحتاجه جميعًا أن نخلّد الشيء الجميل في ذاكرة الآخرين لنظل أحياء في نفوسهم وذاكرتهم، لا كدَّر الله لكم حال، ورحمنا جميعًا وأسكن أمواتنا الفردوس الأعلى في الجنة.

اللهم ارحمنا إذا نسي اسمنا ودرس رسمنا وأحاط بنا قسمنا ووسعنا، وارحمنا إذا أتانا اليقين وعرق منا الجبين وكثر الأنين والحنين، وارحمنا حين تحين السكرات وتزرف العبرات وتنكر الذات بالذات فلا فلذات ولا ملذات، وارحمنا إذا اشتدت السكرات وتوالت الحسرات وأطبقت الروعات وفاضت العبرات وتكشفت القوى وخارت القدرات.

اللهم ارحمنا إذا بلغت التراق وقيل من راق والتفت الساق بالساق وتأكدت فجيعة الفراق للأهل والرفاق وقد حم القضاء فليس من واق، وارحمنا إذا يئس منا الطبيب وبكى علينا الحبيب وتخلّى عنا القريب والغريب وارتفع النشيج والنحيب، وارحمنا إذا حُمِلنا على الأعناق وقيل إلى ربك يومئذ المساق وداعًا أبديًا للدور والأسواق والأقلام والأوراق إلى من تذل له الجباه وتخضع له الأعناق.

اللهم ارحمنا إذا وورِينا التراب وغـُلِقت من القبور الأبواب وانفض الأهل والأحباب والأصحاب والأنساب فإذا الوحشة والوحدة وهول يوم الحساب، وارحمنا إذا فارقنا النعيم وانقطع النسيم وقيل ما غركم بربكم الكريم، وارحمنا إذا أقمنا للسؤال وخاننا المقال ولم ينفع جاه ولا مال ولا عيال وقد حال الحال فليس إلا فضل الكبير المتعال، وارحمنا إذا أهـُمِلنا فلم يزرنا زائر ولم

يذكرنا ذاكر ومالنا من قوه ولا ناصر فلا أمل إلا في القاهر القادر الغافر الساتر.

يا من إذا وعد وفا، وإذا توعد عفا.. اللهم ارحم من هفا وجفا وغفا، وشفِّع فينا سيدنا الحبيب المصطفى، واجعلنا ممن صفا ووفا، وبالله اكتفى يا أرحم الراحمين يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأراضين يا ذا الجلال والإكرام .

على سرير المرض

الغافل من نسى الله، واستمتع بدنياه، واتخذها عطره وملهاه، وفرَّط في عمره، وسلَّم أمره لهواه يلعب به كيف يشاء، و«العاقل من فطن وتدبر أمر غيره، وفكّر في أمره، ومشيبه قبل أن يمشي على عصاه، ونظر في قبره ليراه، كيف بناه، وماذا سيحمل معه من دنياه لأُخراه ليلقَ به الله جل في علاه؟»

ليعلم كل إنسان على ظهر الأرض أن ما من بشرٍ إلا وسيذوق مرض الموت حتمًا، ولكن بطعم مختلف ألوانه، ولم يشابه كأس أحد غيره منذ أن خلق الله الخلق بأمره إلى أن يأذن بالفناء، ولم يبقَ إلا وجهه.

سبحانه وتعالى عجز الأطباء والحكماء قبل الملوك والرؤساء عن تحصين أنفسهم أمام المرض الذي قصم الرقاب، ولم يحجبه حُجاب، ولم يغلق في وجهه باب، فمرض من كان يداوي المرض، بنفس الداء ولم يجد لنفسه دواء، وحار الطبيب وخانته عقاقيره.. سبحان الله.

المرض ليس في عنقه جرسَ إنذارٍ لأنه مخلوق من رحم الغيب لا يحترم شيب ولا يعظم وقار، وليس بينه وبين ملكٍ أو سلطانٍ أو

حاكمٍ عمار.. طعمه مرار.. ليس منه مهرب، ولا يجدي معه فرار، وهو ليس بعار ليشمت من مُتِعَ بتاجه فيمن خطفته أنيابه.

كل سوف يذوقه حتمًا وإن طال العمر أو قصر لأن الله تبارك وتعالى كما كتب على كل شيء زكاه فإن زكاة الصحة المرض، وزكاة الجسد الموت.

أيها الراقد على سرير المرض لن تستطيع أن تقبض على دقات قلبك ليهدأ، لن تستطيع أن توقف ضغط دمك المتدفق، لن تستطيع أن تزيف ولو قليل من مرضك لتقنع غيرك بأنك صحيح معافى.

إحساس مخيف مرعب، وقد يكون مخيب قبل أن تمثل بين يد الطبيب بلحظات ليصارحك بحقيقة مرضك الذي فشلت معه الأدوية في وقف المرض بجسمك أو السيطرة عليه.

يا إلهي نمشي على الأرض نخرقها بأقدامنا، ولا نعلم ماذا تحمل الأجساد من خفايا أو خبايا.

يا إلهي.. لا يملك الإنسان فينا إلا حنجرة ولسان.. حتى إذا دهسه قطار المرض يدرك بعين اليقين أنها الخاتمة والنهاية فلا طب ينفع، ولا حكيم يشفع، ولا راق يمنع الخطب إن حل.

أيها الشامت.. الذي قال في المرض: «أنه ذنب فلان إبن فلان».. إتق الله فإنك لست على المرض بكبير، ولو كنت سلطانِ أو أمير أو وزير فإن لك بدن كما لغيرك بدن، وغدًا سوف تدفع الثمن.

المرض حكمة بالغة في الحياة ليتعظ اللآهي في دنيا التلاهي، ويأخذ من المسكين الراقد على سرير المرض، عبرةً لنفسهِ اللوامة أو نفسهِ الأمارة، عساه أن يرى في المريض الضعيف الذي لا حول ولا طول له ولا قوة رسالةٍ تحذره أو ينذره لفظ آه فيخترق سمعه، ويقع في قلبه، فيدرك أن الإنسان بسطوته وقوته وجبروته سيحل عليه يوم عَسِير سيكون فيه أضعف من بعوضة.. فليتق الله الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه المرجع والمصير.

أيها الغني العفي، لا تغتر بصحتك اليوم فإنها أُهديت إليك في بدنك على سبيل الأمانة، فلا تجعلها عليك حسرة وندامة، واعلم بأن ما استخلِفت فيه بالأمس سيؤخذ منك في الغد، وحين ترقد على السرير الأبيض سوف تكتشف المفاجأة!

عشرات من الأطباء يتفحصون الجسد المُسجّى بين أيديهم، وكأنه صندوق أسود، وقرارهم قد لا يتعدى سطر واحد، ولكنه صادم: (جسم المريض بداخله مزرعة من الأمراض تُسقى بدمٍ واحد)!

في هذه اللحظة عبسًا تحاول النهوض كالحِصان، لكن الجسد لا يقوى على الحركة لقد خذلك، وتمرد عليك، وخيب فيك أملك، وهنا تُدرِك أنك سوف تمضي حياتك وحدك، تمضغ الأحزان وحدك، وتلعق جراحك وحدك.

أقسى اللحظات التي نعيشها في مشوار العمر هي لحظات الموت رعبًا من المرض المجهول الذي يسكن الجسم، وتتعطل معه الأناقة، وتتعطل الأسماء والألقاب، ويتعطل التاريخ، وتصبح الأيام داكنة، وتصوم الطيور عن التغريد كأنها تشاركك الأحزان، وتتساءل:

هل جاء وقت الحساب في الدنيا لتصفية ما بينك وبين خلق الله.. أم إنها الخاتمة والمنقلب؟

حقًا.. إنه الموت رعبًا في الجسد الذي هده المرض، ولم يعد يقوى على رد الحقوق، أو الإقتصاص منه.. إنها الدنيا التي عشنا على بطنها ساعة أو ربما كانت عشية أو ضحاها.. يارب سلم سلم.

يا الله.. سامحني.. لقد عظم الذنب، وجل الخطب، وانقطع الرجاء إلا منك، وانصرف عني الحبيب والقريب والطبيب، ونسيت كلمات الرُقيا، وضاقت الدنيا، واقتربت الساعة، وعجزت الأطراف وتجمدّت، وعيناي شاخصتان صوب وجهك الكريم.

اللهم إنك تعلم ما بي، ولا يخفى عليك حالي، وأنت الغني المغني عن سؤالي، اللهم خفف عني، وسامحني بحق ضعفي وخوفي من لقائك.

اللهم إني أطمع في حلمك وكرمك يا حليم فلا تصرف عني وجهك يا من يجير ولا يُجار عليه.. يا رب العالمين.

على «شفير القبر»

الحمد لله الذي خلق الخلق ولم يبق حي لعظمته، ولم يكن له شريك في الملك.

أحمدك ربي وأستعينك واصلي وأسلم على خير خلقك، وخاتم رسلك سيدنا الحبيب محمد مِسك الختام من رب الأنام القائل وقوله الحق: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له).

اللهم نوِّر قبور من رحلوا، وأجعلها فسحة وسرور، وروضة وحبور عليهم يا رب.

صُحبتي في الدنيا، وأحبتي في الله.. جميعنا راحلون لا محالة.. ما مضى منا كان ظل زائل، وما بقى منه غير قليل لا يذكر في مثقاله، وانقضت الشمس إلى منازلها، وليعلم الفطِن أن ما شاب من نواصينا إذن.. يعقبه إنصراف إن لم يكن اليوم فغدًا.. ولسوف تنقضي الدنيا بأفراحها وأحزانها، وتنتهي الأعمار على طولها وقِصرها، ويعود الناس إلى ربهم حُفاة عراه بعد ما أمضوا فترة الامتحان على ظهر الأرض.

(كما بدأكم تعودون) يعود الناس إلى ربهم نُحلاء فقراء لا حول لهم ولا طَول.. محتاجين إلى دعوات صالحات من إخوانهم وعشيرتهم مرفوعة إلى الحنان المنان.. السميع البصير.. الرحمن الرحيم.. ومن غير الله – سبحانه – يُقصد في هذا الموقف الجلل، وماذا غير الدعاء إذا دعاه ضمير مخلص.

لهذا الموقف العصيب عليكم بالدعاء والتضرع إلى الله، والإلحاح والتذلل إليه.. فليس شئ أكرم على الله منه، والدعاء نافع للمسلم سواء استُجيب له أم لم يُستجب لأنه إذ لم يجبه الله لصاحبه في الدنيا لحكمة يعلمها سبحانه في عُلاه عوضه مثوبة وأجرًا في الآخرة.

اللهم يا حنَّان يا منَّان يا ذا الجود والغفران.. اللهم اغفر لموتانا ارحمهم وعافهم واعف عنهم وأكرم نُزلهم ووسع مدخلهم.. اللهم آنسهم في وحدتهم، وفي وحشتهم، وفي غربتهم.. اللهم أنزلهم منزلًا مباركًا وأنت خير المُنزلين.. اللهم اجعل قبورهم روضة من رياض الجنة.. اللهم اغفر لهم في المهديين، واخلفهم في عقبهم من الغابرين، واغفر لنا ولهم يا رب العالمين.. اللهم أمّنهم من فزع يوم القيامة، ومن هول يوم القيامة، وارحمنا إذا صِرنا إلى ما صاروا إليه.. يا رب العالمين.

ودمتم سالمين

في «سكرات الموت»

عزيزي القارئ: هذه «وصية» لنفسي الغافلة وإياك.. عسى أن يهتدي بها أحدنا فينجو من لحظات الوعيد والكرب الشديد.. فما أشد وقعًا وألمًا وفزعًا على النفس من لحظات السكرَات، فيها من الأهوال ما يشيب له الولدان وتخِر له الجبال.. إنها آخر عهدك بالدنيا.. لحظات يسجلها الأهل والخلان.. لن تفارق الأذهان.. سبحان من سلب منك القوة والعز والجاه والسلطان.. وأمهلك بضع ثوان.. تلهج فيها بما حرصت عليه في عمرك.. ثم ينتهي منك أمرك.. وتُسل منك الروح كضرب السيف على الرقاب.. لتعود من حيث أتيت من التراب وإلى التراب.. اللهم سلم سلم يا رب.

بادر يا رعاك الله من الآن بالتخلص من ملفاتك القديمة، ومتعلقاتك السرية قبل أن يداهمك موعدك، وتأتيك السَكرات فتعجز ولم تقوَ على رفع سُبابة يدك، وأعلم أن أسرارك ستبقى ذكرى سيئة من بعدك.. سيرثها خاصتك وأهلك.. وستبقى في أعينهم غير الذي عرفوه.. سيسقط هيبتك ووقارك.. يا أيها الغريب.. يا من ترتدي قناع الزيف والخداع.. اليوم حياة وفرح ومرح، وغدًا القريب يوم وداع..

سنرحل حتمًا عن ديارنا .. فلتكن لنا بصمة وسيرة جميلة، ولنتحلَّ بأجمل صورة.. فإنّا والله لأحوج ما نكون إلى دعوة طيبة برحمة أو غُفرانٍ خير لنا من أن يغرُب عنا الأهل بوجوههم.. اللهم سامحنا فيما مضى، واغفر زلاتنا، واستر عوراتنا يا رب.

اعمل طيبًا يا رعاك الله ليرى غيرك وجهك وأنت في السكرات بشوشًا.. فوالله الذي لا إله إلا هو إن عملك في حياتك سيُعرض عليك وحدك، ومن عِظَمِه وهوله سيكفهر وجهك، وأنت شاخص أمامه تتصبب عرقًا وحسرة، وسيراه غيرك وقت احتضارك.. فلا تكن والعياذ بالله مُسوّد الوجه كظيم.. انهض يرعاك الله بالتوبة، وانأي بنفسك مما في خزينتك.. تخلّص من متعلقاتك في حياتك التي ستفضحك بعد مماتك.. واعلم أن اليوم فرصتك الأخيرة.. فالموت لن يطرق بابك، ولن يستأذنك.. الموت سيداهمك بغتة، وتترك خلف ظهرك ذكراك وما زرعت يداك لتكون شاهدة لك أو عليك.

يا حسرة على العِباد.. نُؤمنُ بالموت ولا نُعِد له عُدته.. فهل بلغ بنا منابع الأمل أن نستهين بسوء العمل فنراه حسنًا أو نحسبه هينًا وهو عند الله عظيم، والله إن الأمر جد خطير.. ستخرج منا الروح مودعة هذا الجسد اللين الطري النَدِي ما بين شهقة وتنهيدة ليصير جسدًا رِميًا تأكله ما وعت البطن، ويتكالب عليه ما يقزز النفس فلا تدعه

إلا عِظامًا نخره هينة هشة كالعِهنِ المنفوش.. هذا ما بقى منا تحت طبقات الثرى حينٌ من الدهر.. ثم نصير تُرابًا تطأه الأقدام.. ثم لم نكن شيئًا مذكورًا.. أما الروح فهي في قبضة الله جل في عُلاه، وهو أعلم بها منا سبحانه وتعالى.. فاتق الله، ولا تأمن مكرُه.. واعمل صالحًا ترضاه.

احذر يا رعاك الله من السيئة، وما أكثرها في زماننا.. وأعلم يا هذا أنها تنتشر كالنار في الهشيم، وأندم على ما بقى لك واستغفر لذنبك.. ولا تركن إلى توبة تتفوه بها ولا تعيها أو تعمل بها.. فوالله إن الجُرم لفادح، وإن الذنب لعظيم.. يا رب لُطفك بنا.. ولك الحمد وحدك لا شريك لك أن وهبتنا نعمة العقل لنُدرك هول المصيبة، وجُل المعصية بما كسبت أيدينا.. ولك الشكر أن منحتنا فرصة نمحو بها خطايانا وما أُكرِهنا عليه من النفس الأمّارة بالسوء.. ولك الكِبرياء في العلياء أن شهدت أنفسنا من احتضر لنقر بالقضاء والقدر وأنك إلينا منا أقرب، ولنشهد أن وعدك الحق لا مفر منه ولا مهرب.

ليتنا نعي بعين اليقين أننا سنُعرَض على لحظةٍ فاصلة حين تتمدد على الأسِرّة الأبدان، وتغرُب عنا الدنيا، وتزوغ العينان، وتتقطع منا الأنسال والأوصال ويُعرض علينا ما قدمنا من عملٍ كطيفِ عابرٍ، وما لأحدٍ من مُنجزٍ ولا مُنقِذٍ، وما لنا من قوة ولا ناصر.. إنها الخاتمة

والمنقلب .. وتحضُر ملائكة الله جل في عُلاه، وينكشف الغطاء عنا ويتحاجون فينا في لحظاتٍ، وتنتهي السكرات، وتُقبض الأروح التي كم لعبت ورتعت.. ويتلقونها الموكلون بها على أحد الحالين إما من أصحاب النازعات ثم تُنشط ثم تغرق في النار والعِياذ بالله، وإما من أصحاب السابحات السابقات سبقًا.. سبحان من له المَرّد والمصير.

اللهم لا تأخذنا على غِره، وهوّن علينا الكرب.. ولا تُمِتنا موت الفاجعة، وصَبّر علينا أهلُنا ليحتسبونا عندك.. اللهم لا تجعل للشيطان حظًا علينا.. اللهم اعفُ وسامح يا جميل المغفرة، وبَيض وجوهنا في السكرات، واجعلها يارب يارب ضاحكة مستبشرة.. اللهم عفوك قبل الممات، واجعل خير أيامنا يوم أن نلقاك واجعلنا ممن يراك.. اللهم خذ بأيدينا إليك لنتوب، وخذنا إليك مُغسلين من الذنوب.. اللهم إنّا أحبابك مساكين.. أنخنا ركابنا ببابك فسلم سلم.. واغننا وجَمِلنا يا رب بالتقوى فإن أجسادنا على النار لا تقوى.

إلى «المسافر» بلا «عودة»

الموت أصعب كلمة على وقع الإنسان والحيوان، هذه الكلمة التي تتكون من ثلاثة حروف مخيفة مرعبة ما ذُكرت عند حاكم أو سلطان أو صاحب مال أو جاه أو حسبٍ أو نسبٍ إلا وكدّرت صفو مزاجه وقلبته رأسًا على عقب!

إنها النهاية التي لا مفر منها ولا مهرب، نؤمن بها ولا نحبها، والأُذن منها لا تُطرب، بدايتها سكرات، وأوسطها حسرات، ونهايتها عَبرات!

ذلك بأن الموت هو منتهى كل حي، يأخذنا من الضي إلى قعر الظلمات، إذا ما مات الإنسان، ليفصلنا عن الأهل والمتاع الذي حرصنا عليه طوال الحياة، ويأخذنا إلى عالم ما تحت الأرض، وما فيه من أهوال عضال.. تراب بعد سرير، ورمال بعد حرير، وحفرة بعد قصور، وديدان بعد عطور.. سبحان من له الدوام.

إنها الخاتمة والمنقلب لبداية رحلة الغيب التي لا زيف فيها ولا ريب، يجهلها أهل الفوضى، والحقيقة التي يجب أن نعيها ونؤمن بها بأن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

أيها المسافر على الأعناق من «وادي الذئاب»، غدًا سيغلق الأهل خلفك الباب، بعد أن يمنحوك من وقتهم الثمين قدر ذبح بعير، ثم ينصرفوا عنك لتقسيم ما تركت لهم خلف ظهرك، ويتخلى عنك الحرس فلا سامر لك ولا ونس، وبعد أن يطمئنوا أنك حبيس القبر بلا درهم ولا دينار ولا بطاقة، ولا صك عقار، سينفضوا من حولك، ولو جلسوا معك ما حملوا عنك من عذاب الله شيئًا.

غدًا سنُحصى في عِداد الأموات، لأن الموت هو الحقيقة الوحيدة في حياتنا، ولا يستطيع كائن من كان أن يحدق فيه، اليوم نلهو ونرتع ونلعب ومنه نهرب ونخاف، ونحن نجهل أنه خلف الأكتاف.

وهو الوحيد الذي عجز وفشل أمامه أهل العلم، والطب، والفلك أن يجدوا له علاج فلا براء منه ولا دواء، ولنا أن نعلم بأن الحياة الدنيا ما هى إلا حلم صيف قصير، شئنا أم أبينا سوف يوقظنا منه الموت، فإذا ذكرت الموتى فعد نفسك أحدهم، واعلم أنه كم من عزيز أذل الموت مصرعه.. كانت على رأسه الرايات تخفق.

كن على يقين أيها الضيف أنك غدًا سوف تسافر بلا عودة، وتنسل منك، وعنك الدنيا التي كنت تركض وتركب على ظهرها، تريد أن تحوزها من شرقها إلى غربها.. غدًا ستجمعك في بطنها جثة هامدة

رهينة ما كسبت يداك، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾[الانشقاق: 9-7].

يحكون عن شيخ المرسلين سيدنا نوح عليه السلام: أنه جاءه ملك الموت ليتوفاه بعد أكثر من ألف سنة عاشها قبل الطوفان وبعده فسأله: يا أطول الأنبياء عمرًا كيف وجدت الدنيا.. فقال عليه السلام (وجدتها كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر).

في ختام «وصيتي» أقول لنفسي الغافلة، وأستغفر الله لي ولكم ما قاله أحد الشعراء: يا نفسُ تـوبي فإن المـــوتَ قد حانا

واعـصِ الهـوى فالهوى ما زال فتَّانا

في كـل يــوم لنـــــا ميت نشـيّعـه

ننسى بمصـــرعـهِ آثـــارَ مـوتـــانا

أمسك عليك «لسانك»

سبحان من خلق الخلق وهو أقدر عليهم، وأعلم بهم.. من مهدهم إلى لحودهم.. كَفَلهم ورَزَقهم في بطون أمهاتهم وهم لا يعلمون شيئًا، وصوَّرهم فأحسن صورهم.. سبحانه ما حملت النساء بعلمه -إلا بالبشر- وخير الخطائين التوابون، وما حوت السماء بإذنه - إلا بالملائكة - يسبحون ويمجدون، وكلُ أمره ومرده إلى الله.

من ظن أننا ملائكة نمشي على الأرض بلا خطيئة، وحاسبنا على كل هفوة أو غفوة فقد أشرك نفسه مع الله جل في عُلاه تقدست أسماؤه وجل ثناؤه.. ما خلق الله الملائكة إلا من نور في نور عرشه ليعبدوه ويقدسوه، وخلقنا من طين فاختلفت ألواننا ولهجاتنا ولكناتنا، وقَدر لكل نصيبه مجزول غير منقوص.. فمنا من كَملّه بعقله، ومنا من جَملّه بخُلقِه، ومنا من منحه المال، ومنا من وهبه الأطفال، ولا مانع لما منح، ولا مانح لما منع، سبحانه سبحانه لا يحاسبنا إلا هو.. نخطئ فيسترنا، ونعصيه فيمهلنا، ونتمادى فيجود بحلمه، وإذا ما استغفرنا يمحو الذنب، ويقبل التوب، ويبدل سيئاتنا حسنات، وكان بنا غفورًا رحيمًا.

فاحذر يا رعاك الله من كلمة قد لا تعِي لها بالا فتهوي بك في آتون من لا يرحمك ومن لا يعلم ما وقر بقلبك، وممن يترقبك.. ليجد فيك زلـة.. فأمسك عليك حديثك وإن كان عَذب على مسمعك.. فربما لا يستسيغه من معك، واعلم أن صمتك حكمة، وإن كان مُلجم خير لك من أن تندم على كلمة تهوي بك أو ترتد إليك بسهمِ مؤلم.. فو الله لن يهينك في الدنيا إلا لسانك، ولن يكُبك في نار جهنم إلا حصاد لسانك، وخير لك أن تُبتر يدك من رسغك عن أن تكتب كلمات صاغتها نِيتك أو سجيتك لا تعي ترجمة لها في مخيلة الآخرين فتحقرك في نظر من يقرأها أو يطلع عليها.. عِش إلى جوار من لا يعرف قدرك أو منزلك كغريب استظل بشجرة ثم انتهى به الظل ففارق في سكون.

لا يغرنك عمرك وإن بلغ بك أرذله أنك تستطيع أن تقرأ وجوه الناس في أيام أو سنوات، ولا يغرنك سفرك وإن كان خلف سبعة أبحُرٍ أنك بملاح ماهر أو أنك للأمواج قاهر.. لا والذي أخرجك من بيتِك بالحق.. إنك بعضُ من بعضٍ مغامر، ولكن في حفيظة الله ووداعته يكلؤك أناء الليل والنهار.. فلا تركنن يا رعاك الله إلى النوايا الحسنة فحسب.. فإنها محفوفة بحصوات مسنونات كالشظايا قد يصيبك منها البعض إلا ما رحم ربي.. ذلك ليبتلى الإنسان، وليعلم الله الذين صبروا.

اللهم اجعلنا في عِياذ منك وخشية بالغيب، واجعلنا من أوليائك وخاصتك المساكين الصابرين الصالحين المحتسبين أجورهم عليك.

اللهم إنّا أغراب بنو أغراب.. اللهم يَمِّن لنا الكتاب، ويسر لنا الحساب، وافتح لنا من الرحمات أوسع الأبواب.. يا أعظم مسئول ويا أكرم من أجاب.. يا الله.

إلا «الخيانة»

الخيانة، ما أقبحها من كلمة تجري على اللسان فيجفّ ريقه، ولا تستسيغها أذن واعية، تحمل من المرار ما يعكر صفو البحار، ذلك بأنها «الخطيئة» التي تعاقب صاحبها بقية حياته، بتكدير صفوه، فلا يتحلل منها طرفة عينٍ، تتربص به ما دام يلهج بالنفس على ظهر الأرض، تؤرق قيامه، وتزعج منامه، يتحسس صورة ضحيته رأي العين من أمامه، ويستشعر الرعب من خلفه، وعن يمينه وشماله، وعلى الجُدر لا تفارق خياله.. يود لو يفتدي منها بما بقي له من عمره، كي لا تزاحمه في قبره حتى قيام الساعة، وتفضحه يوم يبعث الأشهاد.

أما عاقبة الخائنين لا ريب فيها فهي سواد وجوههم في الدنيا، وسوء منقلبهم وبئس المصير، وما أقسى العاقبة حين يحرمهم الله من الهداية إلى الحق، فلا يبصرونه، وإن كان أبين من الصبح لذي عينَين، وأوضأ من الشمس في رابعة النهار، ويحرمهم من محبته -عزَّ وجل-، ويبطل كيدهم، ويفلّ حدّهم، ويجعل دائرة السوء عليهم، ثم تكون نهايتهم الهلاك، ليكونوا لغيرهم من بعدهم عظةً وعبرةً وآية.

اتقوا الله في أنفسكم واعلموا أن عاقبة الخيانة وخيمة يموت «الخائن» أبشع ميتة.. جسد رِمي لوحشِ آدمي ركض ولهث، وسال لعابه كرغاء بعير في سباق العمر.. ثم انبطح على عقبيه في مشهد لخّص حياته بأدق تفاصيلها.. جاء إلى الدنيا كشبح، وخرج منها كسراب بقيعة، لم يسد رمقه غير أقبح ذنبِ، ولم يشبع غريزته غير شهوته، ولم يملأ عينيه إلا التراب.

روي أنّ معاوية كان بينه وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو «برذون» وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدراً، فإذا هو عمرو بن عنبسة، فأرسل إليه معاوية يسأله فقال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء».. فرجع معاوية.

أما الضحايا الذين ابتلوا بالخيانة ممن ائتمنوهم، ووثقوا فيهم، فإن الله سيحفظهم وسينصرهم على هؤلاء الخائنين، فتلك هي العاقبة، وسُنة الله - تبارك وتعالى - في خلقه التي لا تتخلف ولا تتبدل، ولنعلم علم اليقين أن النفس الإنسانية لا تتجزأ، ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، ليست من حقها، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة، ولا يصلح الله لها عملًا ولا يتقبل منها

ولا ينظر إليها أبدًا، إنه قمة الحرمان والخذلان المبين أن يعرض الله وجهه الكريم عن وجوه الخائنين الذين خانوا الله وخانوا أماناتهم.

يحكى أن أحد أمراء الدروز من «بيت الدين» كان يدعى «بشير المعني»، قد دعا أمير قبيلة عربية من البادية، ولبَّى الأمير البدوي الدعوة، فقام الأمير «بشير» باستقباله بحفاوة، ودعاه إلى نزهة لصيد «طيور الحجل» بجبل لبنان، وكان عند الأمير «بشير» طائر «حجل» جميل رباه في منزله، وكان يجعله طُعمًا يأخذه معه لمكان الصيد فتجتمع طيور «الحِجل» من حوله فيقوم الصيادون باصطياد تلك الطيور، وعندما بدأ الصيد أمام الأمير «البدوي»، والصيادون يرمون الطيور «المخدوعة» بالبندق!

صوَّب «الأمير العربي» نحو طائر الأمير بشير وقتله، فصرخ به الدرزي بشير: «هذا طائري.. لِمَ قتلته»؟

فأجابه الأمير «البدوي العربي»: «والله، لا يأثم مَن قتل خاين بني قومه.. لا يأثم من قتل خاين بني قومه!»

أما مِسك الختام: كان سيدنا الحبيب المصطفى خير الأنام – صلوات الله وسلامه عليه – يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة» (أخرجه النسائي).

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة؛ رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطِ أجره».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكلّ غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان».

يا كلَّ مَن خان وديعة أو عهدًا أو صديقًا أو صديقة.. أين ستهرب من جرمك؟

وكم ستنتفع بها من عمرك؟ إنها لن تطيل أجلك، واعلم أن الله الذي لا تراه يراك في تقلبّك وحين تقوم، ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.

أيها الخائن بلا أدنى وجل.. اتقِ الله عز وجل، واستمع قولًا به ضُرب المثل «دقة بدقة ولو زدت لزاد السقا».

إلى «غافـل»

هل أمنت عقاب الله ومكره، أم تحصنت من قضائه وقدره، فظلمت الضعفاء بحولك وقوتك، وافتريت على الأبرياء بعزك ومنصبك، وتجرأت على الله الذي يراك في تقلبك.. والله إني لأعجب من تبلد مشاعرك، وقسوة قلبك، وموت ضميرك، واستباحتك حرمات الأموات.. بلا منازع أو وازع يخبرك أنك غدًا ستموت، وبين يدي الله الواحد القيوم يختصم الخصوم، ولن يشفع ولد لوالده، ولا صاحب لصاحبه، ولا مكفُول لكفِيله، ولا خليل لخليله.. وما أغنت الدنيا من حي على ظهرها.. كل فارق عز الديار، ووُرِيَ في بطنها بلا متاع أو دينار.

يا أهل الباطل.. يا أهل الزور.. غدًا الرحيل الرحيل.. والرقاد طويل، والزاد قليل.. غدًا تفارقون القصور والجواري والحرائر، وتُبلى السرائر.. غدًا تخرجون من سعة الدنيا وزخرفها، ومن ترف الدور والقصور إلى ضيق اللحود والقبور، يزاحم بعضكم بعضًا.. وتتوالى عليكم أولادكم وأحفادكم وأحفاد أحفادكم، ولسوف ينساكم نسلكم من أصلابكم .. فلا شاكر لكم ولا ذاكر، كم لنا من

أجداد منذ خلق الله الخلق.. رحلوا عن الدنيا وفي أعناقهم كتبهم ما علمنا عنهم شيئًا.. أين هم.. أين قبورهم .. سبحان الله الذي أماتهم ثم يحييهم للحساب والعقاب.. فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور.

يا كل ظالم مغتر قاسي القلب.. لا ينسيك أملك سوء عملك.. اذهـب غير مأسوفٍ عليك تصاحبك الصرخات، وتلاحقك اللعنات أينما حللت أو ارتحلت، واعلم أن سهام الليل بإذن ربها سوف تستقر في أعز وأغلى ما تملك، ولن ينفعك عض الأنامل، واعلم أن من قتلت سيكون أطول منك عمرًا، وأزكى سيرة وأرقى منزلة وأطيب مقامًا، ولعَمري.. لن ينفعك من معك، ولن يخذلك إلا ظلمك، فتحرّى عن أصحاب الدم، وأبكِ بين أيديهم، واعتصر حسرةً وندمًا على جرمك.. فكم ألهبت ظهورهم بسياطك، وبقرت بطونهم برماحك، ودعوا عليك وأهليهم بظلام ليل أن يفضحك الله في صبيحة يوم عسِر، ويصب عليك جام مرض فلا تنتصر.

احذر يا من أنذر.. الخريف على الأبواب، والبيت خَرب وخراب، ولم يبق لك من ضيافتك غير أنفاس معدودات مُجهدات.. تخرج ولا تعود، والعاقل من تعلّم ووعى، والجاهل من نسى وطغى.. فمن تكون إذن.. أيها الغافل الجاهل الذي تعلّق قلبه بهوى غانية فانية..

زينتها بضاعة، وعِطرِها ساعة، وطلابها يتكالبون عليها يركضون وينهشون، ويتصارعون كالوحوش في البرية.. يقتلون بعضهم بعضًا ويقسمون ويحنثون.. يصبحون مرائين تراهم تحسبهم براء.. كبراءة الغلمان، ويبيتون وقلوبهم أسود من القطِران.. سترها ربنا تبارك اسمه وتعالى جده لحكمة بالغة، ولو شاء وفضحها في عقر دارها لشابت لها الولدان.

فوالله الذي لا إله إلا هو.. إن الدنيا لقصيرة، وإنها لمكيرة.. لم تدم لحريص على حال، ودوامها محال.. طوت من قبلك أبدان من هم اشد منك قوة وأكثر بأسًا، وحوت في بطنها ما لم تُحصه عددًا ولا مددًا.. وسبحان من له العزة والدوام.. يشيع مولود مفقود، ومفقود لا يعود.. ليحق علينا قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾[الغاشية: 25-26].

لا تتاجروا بالقرآن

مرض عضال جديد تفشَّى في جسد مجتمعنا كالنار في الهشيم، ساعد في انتشاره بعض مشاهير قراء القرآن الكريم الذين حباهم الله بموهبة الصوت العذب الجميل، فبدَّلوا نعمته عليهم بدلًا من تلاوته فتخشع قلوب الذين آمنوا إلى تجارة ليكتسّبوا منها الأموال الباهظة بعد تلاوته على جثث «الموتى» لينطبق على أهل كل متوفى المثل القائل (موت وخراب ديار).

هذه «البدعة» طغت في هذا الزمان الذي ارتكبت فيه المنكرات، واستبيحت المحظورات، وبدلًا من أن يعلمنا مشاهير القراء أحكام ديننا، والأدب في حضرة رحاب القرآن الكريم، أعرضوا عنا، واشترط كل مقرئ على أهل «المتوفى» دفع الأجرة التي حددها لنفسه، ووصلت إلى أرقام فلكية، ليقبل أن يقرأ القرآن في سرادق العزاء.

يا أهل «الميت» لا تنساقوا خلف عذب أصوات تجار القرآن إنها بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وإنها طامة وحسرة وندامة على متوفاكم لن تنفعه تلاوة مقرئ الإذاعة، ولن تغنّي عنه في قبره من عذاب الله شيئًا.

يا مَن اتخذتم من أصواتكم والقرآن تجارة دنيوية رابحة تدر عشرات الآلاف من الجنيهات مع كل غروب شمس ووفاة روح، إنها خدعة الدنيا التي أقبلت عليكم، وأقبلتم عليها، فنصبت لكم شباك السباق ليعرض كل منكم صوته، وليضع له أجرًا، فيتبارى مقرئ ليستعرض «نفسه الطويل» وليحقق أجرًا أعلى، وآخر يتغنى بآيات الله على سلم موسيقي، ليتصدر قائمة أعلى الأجور، ومقرئ ثالث جاء بمكبرات صوت ومكسرات وكاميرات، ومدير تصوير، ومذيع ليسجل تلاوته ويعرضها للبيع لأهل «الميت»، والأدهى من ذلك يستهل المذيع كلمات التقديم بمديح، وشعر في فضيلة «المقرئ»، زاعمًا أنه سيحيي «الحفل» من سرادق المرحوم.

كل يوم قائمة أسعار جديدة، تحت مظلة الجشع تلهب ظهور أهل المتوفى، وكان الأحرى بتجار القرآن أن يتذكروا جلال الموت، وأن يعدوا له عدته.. ربما كان أحدهم هو «الميت» اللاحق فيلقى الله -تبارك وتعالى- على معصية، ولسوف يسأله الله على ما كسبت يداه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن القرآن فيما عمل به، هل تلاه لله أم أن جمع المال ألهاه، أم تاجر به وأنساه الشيطان سؤال ربه؟

أموالكم جمعتموها لغيركم، وأوزارها عليكم معلقة في أعناقكم.. ماذا ستقولون لربكم يوم العرض عليه.. يوم لا تخفى منكم خافية؟

يا تجار القرآن الكريم.. يا مَن «توفيتم» وسبقتمونا إلى الدار الآخرة.. ماذا أُجِبتم؟ وهل أغنت عنكم أموالكم من عذاب الله شيئاً؟ أم أنها كانت حسرة وندامة؟

يا تجار القرآن الكريم، يا من تتلون كتاب الله وراء ظهوركم.. اسألوا مَن سبقكم، ممن تاجروا به من قبلكم، كم عمّروا في الأرض عدد سنين، وكم أخذوا معهم في أكفانهم أو حوت أبدانهم في قبورهم، لو اطلعتم عليهم ما بقي منهم إلا جيفة ورميم.

يا مَن ورثتم تجارتكم لأبنائكم وأحفادكم، وتعلمون علم اليقين أن تجارتكم البائرة مردودة عليكم يوم تبلى السرائر، وما لكم من قوة ولا ناصر.

يا تجار القرآن الكريم.. ألم يستفتِ فيكم أحد قلبه ليعرف إن كان طعامه وشرابه من حلال أو حرام.. أم أن على قلوبكم أكنة فختم الله عليها؟

يا حفظة كتاب الله.. هل عملتم بما جاء في محكم آياته سبحانه وتعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾[البقرة: 41]؟

هل تدبرتم القرآن وتلوتموه حق تلاوته لوجه الله، أم أنكم ترنمتم به بألحانكم لتشنف آذانكم صيحات وتهليلات وتكبيرات المستمعين، وليس المُنصتين؟

يا مَن تاجرتم بأصواتكم في القرآن الكريم.. كنزتم من ورائه لأنفسكم جبال أموال، وملكتم من الأرض ما رمحت فيها الخيل والبغال، وشيدتم أبهى الدور والقصور، وألهتكم سرادقات الموتى عن عمارة القبور.

يا تجار القرآن الكريم.. هل شبعت بطونكم من نعيم الدنيا، وآمنتم دوام العافية، وحُسن الخاتمة؟

إلى «مغرور»

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ولا عين تراه، صاحب الجبروت والعز والجاه.

الحمد لله الذي خلق الموت والحياة، وخضعت لعظمته الأفئدة، وخرّت له الجباه.

الحمد لله الذي كتب الموت على كل حي، والفناء على كل شيء.. الحمد لله الذي أذل بكأس الموت الجبابرة والطغاة.

الحمد لله الحمد لله الذي تنزه عن كل نزيه وشبيه، ولم يبلغ أحد منتهاه.

الحمد لله الذي رفع شأنه كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وصدق في مُحكم قرآنه، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون، سبحانه سبحانه.

الحمد لله الذي خلق الدنيا ونكّرها وحقرها وجعلها من «دونّه» ليدرك حقيقتها ومنتهاها أولو الألباب، فعلموا أنهم لن يلبثوا فيها غير عشية أو ضحاها، فطلقوها ثلاثًا، وانقطعوا لما فطِنوا، وأعدوا العُدة للدار التي هي خير وأبقى، وأعطوا واتقوا.

أما أهل الدنيا وخاصتها فقد حرصوا عليها، واستظلوا بظلها، وشيدوا قصورهم وأبراجهم وحصونهم، ولا جرم أنها تزينت لهم، وابتهجت وازخرفت وأقبلت لهم، وانفرجت على أطباق من ذهب وأكواب من فضة، ونمارق وحدائق ورياحين، ليركضوا ويتمتعوا فيها إلى حين، حتى إذا بلغهم التراقِ، وقيل من «راق»، وظنوا أنه الفراق، والتفت الساق بالساق.. حينئذٍ علموا أنه المساق، وأدركوا أنهم بئس ما شروا به أنفسهم، وما لهم في الآخرة من خلاق.

انتبه يا رعاك الله.. الموت أقوى منك، وما حذر وما أنذر، وليس له صاحب ولا عزيز، واستعظم الجُرم، وما استهانت به نفسك، واحذر، فقد ترحل اليوم إلى عالم الأموات وأنت لا تعلم، ولو علم من رحلوا باقتراب آجالهم لخروا للأذقان سُجدًا، وانفطرت نياط قلوبهم على ما فرطوا في جنب الله.

يا من أغرك حُسن «الشباب»، ولم تقرأ رأس من «شاب».. تمهّل، وخذ من أمسك موعظة إلى غدك، واذكر أين كان «والدك»، وكيف مضى إلى حال سبيله.. هكذا غداً ستمضي وحيدًا، فخذ من حياته لك ذكرى، وخذ من رحيله عِبرة، وانتبه يا صاح.. تحت قدميك «قبرك»؛ لذا ضع نصب عينيك انتصاف النهار، وانقضاء الشمس، ومفارقة الديار، وصفحة من كتاب الأمس، واعلم أنه ما خلد في الدنيا من مُعمر، وما أوحشت القبور من ساكن.

تذكّر يا رعاك الله.. ملبسك هذا الفاخر سينزعه عنك «مُغسلك» ويستبدله بكفنك، وعطرك الفواح سيأخذه منك «مُكفنك» ويستبدله بحنوطك، وفمك الضحوك الـذي أكل وشبع ونهب، سيُخلله «مُحنطك»، ويغلقه بقطعة من القطن هي كل ما ستخرج به من الدنيا، وما حوى بطنك من طعام حرام وما نبت به لحمك فإنك مُساقٌ به إلى مستودعك ومستقرك في قبرك، وما أدراك هناك بمن ينتظرك، وكل ما حرصت عليه من الدنيا ستخلفه وراء ظهرك، مالك، منصبك، أنجالك، زوجتك، والرفاق، جميعهم لم يملكوا لك من أمرك شيئًا، غُلت أياديهم إلى الأعناق، وقد ودعوك بدمعة ربما تحجرت في الأحداق، هي كل حقك عليهم، وبراءة ذمتك في عنقك، لن يقولوا لك شكرًا على سعيك، لن يقولوا لك أحسنت في نعيك، لن يمنحوك شهادة ولا قلادة، بل سيقولون لك يوم رحيلك: «وداعًا».. ولن يتمنوا لقاءك.

يا من بطشت يدك وأثمت، وجمعت فما أوعت، وهدمت ولطمت جباه لله ركعت وسجدت، وفوضت فيك أمرها.. جباه عجزت أن ترد عليك ظلمك.. يا من اغتررت بقوتك وعافيتك.. اليوم لا ناصح لك ولا ناصر، وقد خارت عزيمتك ولم تعد بقادر، وخانتك الأماني والنسور الكواسر.. يا أسفاااااااه.. كل شيء ضاع منك، وضل عنك، ولا حول لك ولا قوة إلا بالله.

يا من ناطحت السحاب.. اليوم يملأ عينيك التراب، فخذ منه معك ما شئت فإن لم يكن له ثمن في «غربتك»، عساه أن ينفعك في «تـُربتك».

يا هذا «ولدك» لن يحمل على ظهره وزرك، ولن يكن لك سندك، وحدك ستدخل قبرك، وما آذيت لنفسك، وما كنزت لغيرك .. فاتقِ الله الذي أمهلك، ولا يغرك حلمه عليك، وإن طال عمرك فإنك «ميت ميت».

وختامًا.. نسأل الله -عز وجل- أن يجعل لنا من قلوبنا على أنفسنا رقيبًا، ولا يجعل للدنيا في قلوبنا نصيباً.

اللهم جمّلنا بالرضا والقناعة، والسمع والطاعة، وحببنا في صلاة الجماعة، وذّكرنا بالموت كل ساعة.

اللهم أخرجنا من دنيانا كِفافًا لا لنا ولا علينا.. اللهم لا تحرمنا من دعاء الصالحين إذا أتانا اليقين، وإذا فارقنا الدور والقصور، واجعل يا ربنا عن يميننا نورًا، وعن شمائلنا نورًا، ومن فوقنا نورًا، ومن تحتنا نورًا، وأعِذنا من حر نارك، واشملنا بنورك وحبل جوارك إذا نُسينا في باطن القبور.. يا من أمره بين الكاف والنون، وإليه المرجع والمصير، وآخر دعوانا ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[البقرة: 156].

إلى كل «مهموم»

يا كل من ضاق عليه رزقه لا تحزن، يا كل من فقد فلذة كبده لا تحزن، يا كل من لم يرزق بولد لا تحزن، يا من لم يتزوج بحبيبه لا تحزن.

يا من لم يحظَ بجمال لا تحزن، يا من وُلِدّ يتيما لا تحزن، يا من ابتليّ في حبيبتيه لا تحزن، يا من سُرق ماله لا تحزن، يا من إنقلب حاله لا تحزن.

يا من تأخر عن سفر لا تحزن، يا من لم يوفق في عمله لا تحزن، يا من خاب أمله لا تحزن، يا كل وحيد، أو مسجون لا تحزن، يا كل من حلت عليه النوائب والمصائب لا تحزن.

فقط قل يا من يقلب قلوب الخلق بين أُصبعيه، يا من يجير ولا يجار عليه فرّج عني كربي يا حسبي ونعم الوكيل، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ليس البؤس والشقاء في كل ما سبق، ولكن الهم الأكبر يكمن في عدم الرضا بما أجل الله لحكمة يعلمها جل في عُلاه، والقلب الأمن بالله واثق بأن غدًا سوف تشرق الشمس مهما طال ظلام الليل، ولن يحجب النور جناح عصفور، ولا أسراب خفافيش ولا غربان، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

يا كل مهموم، يا كل مكروب لا تضع رأسك بين يديك، ولا تغلهما إلى عنقك فقط اختلِ بنفسك لبضع دقائق وانظر إلى رب العرش العظيم الذي هو أكبر من همومك واقدر على تصريفها وأرضى بقضائه وبلائه.. ستجد في باطن المحنة منحة لا تُقدر بمال ولا بأنجالٍ.. إن من أيقظك سيحفظك، ومن أشقاك سيتولاك، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين.

في نهاية مشوار حياتك.. حتمًا ستجلس مع نفسك، وتستعيد شريط ذكرياتك من جديد، وسوف تكتشف أن كل درب مشيت عليه قد خطه الله عليك رغم أنه لم يحمل بصمة من أمنياتك، ولكنها جاءت الأقدر والأجدر لك وكان فيها خيرًا كثيرًا.

إنها المقادير والأرزاق، ولا دخل للأمنيات فيها، أما من ورّث مهنته لولده أو أقحمه فيها لتصبح حكرًا لهم فكأنما غرس نبتة شوك في طريق الغير، وإن كبرت وترعرعت نبتته وعظمت لن تطرح إلا نكدًا، وسوف ينتهي الأمل بالأجل حتمًا، ويسدد كل ضريبته، ولك أن تعلم أن معيشته سوف يختم عليها بصك «معيشة ضنكًا»، وسوف يُحشر أعمى.

اعلم أيها المكروب المهموم أن ما أصابك غير سهمك الذي كتبه الله لك لا لغيرك وأنت لا تعلم، وثق أن عين الله أبصر منك وأكرم، وأنت في كف الله لن تظلم فلا تألم ولا تندم.

كم من نِعمٍ حلت بالنقم والسخط على رؤوس أصحابها، ولنا في «قارون» لآياتٍ لأولي النُهى، حينما خسف الله به وبداره الأرض صبيحة يوم عسِر، أصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاءُ من عباده ويقدِر لولا أن مَنّ الله علينا لخسفَ بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون، ولم تتوقف قصص أصحاب الغطرسة والظلم والإفتراء عنده فقط بل توالت على مر الزمان، حينما بدأت بـ«فرعون» و«هامان»، ومرت بـ«قارون»، شهِدنا رأى العين خاتمة الطاغية «شارون».. فما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع!

يا كل من ظُلم إصبر واحتسب، وفوض الأمر لمن بيده الأجر، والله إن الدنيا لقصيرة حقيرة، ولو علم الظالم ضنك القبر وضيقه لعض عمره على أصابع الندم وبكى بدل الدموع بدم.

يا من ضاعت أمانته أسألك أن تستودعها عند الله فأجرها في الدنيا لا يساوي جناح بعوضة بما قدّره الله لك من ثواب في الآخرة، يا من فُجع في عزيز هذا قدّر الله، ولا راد لقضائه فكل سوف يرحل، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، وسل باطن الأرض عما طوت من أبدان فما أكثر ما حوت القبور.

حفظكم الله، ودمتم سالمين.

إلى كل مكفوف ومبصر

سبحان الله العظيم له في خلقه شؤون، سبحانه المتفرد بالكمال وصفات الجلال والعظمة والكبرياء، المنزه عن الشبيه والنظير.. لا ند له، وكل مُلك زائل إلا ملكه، وكل ظل مائل إلا ظله، وكل فضل منقطع إلا فضله، لن يُطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يُعصى إلا بعدله وحكمته، كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل.. وما خلق الله من خلقه عبثًا -حاشا لله- ولكنه اختص من خلقه أنقياء أتقياء بكف بصرهم لحكمة لا يعلمها إلا هو .. تبارك الله رب العرش العظيم.

ما ابتلى الله عبدًا بعد ذهاب دينه بأشد من ذهاب بصره، ومن ابتلى بفقد بصره فصبر حتى يلق الله عوضه الله بالجنة.. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: إن الله قال: (إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة).

فليكن لنا درس مع التأدب في حضرة من اختصهم الله بهذا الحديث القدسي، ولنتعلم منهم الحكمة والموعظة والصبر الجميل، فالدنيا بزخرفها ما هي إلا ظل مائل ومصيرها إلى زوال.

من اصطفاهم الله بكف بصرهم أمدهم بمدد من فضله لا ينقطع.. وهم كنوز زاخرة عامرة لا ينضب معينها من فيض، وعطاؤهم جدير وفير، لا يتضجرون ولا يتأففون.. فحق علينا أن نحملهم فوق رؤوسنا تيجانًا إلى حيث وجهتهم، وهذا شرف لا ندعيه وفضل لا ننكره، وليعلم مكفوفو البصر أن الله حباهم من فضله وعزته أنهم أرق الناس قلوبًا وألينهم يدًا وأجملهم بسمة، وهم أرقى مخلوقات الله خُلقًا ورقة، وأقربهم إلى قلوب عباده مودة.. تصحبهم سحابات من الظُلل ظاهرها عذوبة وبشاشة، وباطنها رحمة ومغفرة.. تهفو إليهم الأرواح النيرة وتتوق لهم أُنسًا وبهجة، وأزكى مخلوقات الله.. ميزهم بحواس الرقي والتوقع واليقين، والخشوع وخضوع قلوبهم وجوارحهم لأمر الله، ومن كان الله يمينهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

اعلموا يرعاكم الله أن المكفوفين يبصرون بقلوبهم التقية النقية ما لا تراه أعيننا، ولا عجب في ذلك فقد كشف الله لهم بصيرة الحِس لذا يقرءون من لهجاتنا، ويستشعرون بقسمات وجوهنا مهما تلونت عليهم، ولا تداهمهم الهواجس، وليسوا في ظلام كما يظن أحدنا، ولكنهم في نور معية الله.. لا يعرفون من الظلام غير اسمه، ومن فضل الله عليهم أن حجب عنهم في الدنيا وجوه قوم عبوسة مخيفة ظاهرها وباطنها جيفة، ومشاهد مروعة عضال شابت لها الولدان وأنتّ لها الجبال.

اربطوا على أيديهم بحنان، وألينوا لهم الكلام، وأعينوهم على الصبر على ما يعانون فهم أغلى صحبة عرفناهم في هذه الدنيا، وأعز ضيوفًا، يمشون على الأرض هونًا .. فما أحوجنا إلى من وصله الله بحبل من عنده، وليربط الله على قلوبنا، ويجبر كسرنا بحقهم.

إياكم وجرح أو إيذاء مشاعر من كف الله بصره ولو بكلمة، فيكفيه ما يعاني .. إياكم والجور عليهم وظلمهم وسلبهم حقوقهم، فالله كفيلهم، ولنتذكر أن الخسارة العظمى في كسر قلوبهم، فالله حسيبهم ونعم الوكيل، ولنحسن الأدب معهم، ولنراقب الله فيهم، ولننشر عليهم أجواء البهجة والسرور، والعبرة بالأثر الذي نتركه في قلوبهم وأنفسهم، ولنقترب منهم كثيرا ففيهم من السكينة والطمأنينة ما يشف القلوب والصدور.

أنصح نفسي الغافلة والجميع.. ألا نُعرِض عنهم أو نشعرهم بألم أو مشقة وكفاهم ما هم فيه.. فالذي استودع عنده أبصارهم قادر على أن يطفئ في أعيننا هذا النور الذي نمرح فيه وبه ليل نهار، ولن نرى بعده غير ظلامًا في الدنيا، ولومًا لأنفسنا على ما فرطت فيه، فلنأخذ بأيديهم في محطة الدنيا القصيرة المكيرة.. ليأخذوا بأيدينا في زحام يوم العرض على الله عز وجل يوم القيامة.

قبل فوات الأوان

هذه تذكرة لنفسي الغافلة، ولكم أخوتي وصحبتي في الله.. علنا نستفيق من غفلتنا وسكرتنا قبل فوات الأوان، وقبل أن نعض على أصابع الندم، ولم يسعفنا العمر أن نرد فنعمل صالحا، لذا حري بنا من الآن أن ينظر كل منا إلى قبره ليرى ما عليه وماله، وعاقبته ومآله، وهل أخذ من سبقنا إلى مستقر داره في كفنه شهادته أو قلادته أو ماله.. أو صاحَبه وزيره أو غفيره أو رجاله.. كلا والله.. ذهب كل إلى قبره وترك خلف ظهره ما حرص عليه من الدنيا.

يا هذا.. سل صاحب القبر.. قل له يا صاح: كيف المزاج الذي تلاعب بالقلوب، وأين هو الآن؟

سله عن الهوى الذي كان يسكن قلبه.. أين ذهب وتخلى عن الخلان؟

سله هل تمتعت في حياتك، وهل أغنت الدنيا عنك شيئًا؟

يا حسرتاه لم يبق منك غير روح مرهونة بما قدمت يداك، وجسد مُسجى في التراب لا حول له ولا قوة، وغاب عنك الأحباب والصحاب.. فلا خِل ولا ظِل، ولا مال ولا أنجال، ولا رفيق ولا

صديق.. يا حسرتاه.. انطوى كتابك يا من غرتك الدنيا بزينتها، وألهاك الأمل فجمعت وكنزت، وحسبت أن الدنيا دائمة لك.. ملك يدك.. وظلمت وروعت، ولم تدري أن الله أمهلك، وكم من ظالم هلك.

يا هذا.. الذي أصبح وأمسى تحت أطباق الثرى .. هل تذكر الآن أين كنت.. يا رهين القبر.. هل تدرى كم كان عمرك في أهلك، وكم طاف بركبك، سبحان من أماتك لتتعظ.. كأنك كنت فينا عابر سبيل، ما لبثت في الدنيا غير عشية أو ضحاها ومضيت إلى غير رجعة.. لترقد هنا إلى أن يأذن الله في أمرك.. ضيق عليك قبرك، وقد تعرى منك ما كان يُخجِلك، وسكن معك من كان يزعجك، وحسبك من الدنيا كتاب لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.. ثقيل حملك.. عفي وزرك.. يا هذا.. هل وجدت من زينة الدنيا وزخرفها ما يُسلي وحدتك في غربتك.. يا هذا.. يا من ركضت في الدنيا ركض الوحوش في البرية، وتصارعت كثور هائج على ضحية، حتى أصابتك المنايا وسهام الموت، وما أغنت عنك قوتك التي خارت في لحظات غير أنك كنت فيها مجرد ذكرى.

يا هذا.. أهل الدور، وأهل القصور في القبور سواء بسواء، وجميع الأبدان تكالبت عليها الديدان من البطون.. يا هذا الذي لم يسكن حفرته بعد.. اليوم أنت غني وعفي.. لا تغرنك الدنيا وصُحبة الشؤم،

وصاحبة السوء.. فإنك لست بماهر ولست بفارس، وما أنت على ظهرها إلا ظِل مائل وسراب زائل تحبو فيها.. ثم تمشي على أثنين ثم ثلاث ورباع.. فاتعظ يا شابُ ممن شابَ، ورد المظالم إلى أهلها، وابكِ ما بقى لك من عمر على خطاياك، واعلم أن اليوم الذي يمض يقربك إلى أجلك، ويأخذك خطوة إلى قبرك.. فلا تركن إلى صلاة ركعتها في جماعة، ولا إلى حجٍ قضيته لوجاهه، فإن الله خبير بصير.

انظر في قلبك سترى فيه ظلام، وما سوّده إلا عملك وطول أملك، واسأل جوارحك وما أضمرت من سوء لغيرك.. يا هذا.. لا تأمن مكر الله، وأعلم بأن عمرك في كتاب لم يطلع عليه سواه.

اللهم اجعلنا هداة مهديين، واجعل عملنا خالصا لوجهك الكريم.. اللهم لا تردنا إلى أرذل العمر يا ستّار يا حليم.. اللهم اختم لنا بالشهادة وأمتنا عليها وثبتنا عليها يوم ينادي المُناد، وأحينا عليها يوم يقوم الأشهاد، واحشرنا يا مولانا تحت لواء سيدنا الحبيب محمد خاتم النبيين.

قبل النوم

عزيزي القارئ: أعرني انتباهك يا رعاك الله لبضع دقائق، أمنحك فيها «نصيحة» ثمينة علنا ننتفع بها، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

أخي في الله.. إذا أويت إلى فراشك في الليل.. اطفئ الأنوار، ودع عنك ما شغلك في النهار، واستلقِ على سريرك، أضطجع على جانبك الأيمن، وخلي ما بينك وبين عباد الله مالك وما عليك، ضعهم خلف ظهرك.. اغمض عينيك لبرهة، تخيل أنك تخلد لرحلة مع النفس، ولن تستغرق غير بضع دقائق شرط أن تعيشها في جو من الظلمات فوق ظلمات.

تخيل أنك انقطعت عن العالم الخارجي، وأنك تمشي حافي القدمين في طريق ليس فيه صديق ولا رفيق ولا ثمر ولا شجر.

تخيل أنك في صحراء في ليلة مظلمة غاب عنها الريح واختفى القمر، وأنت وحدك ليس معك زاد ولا ماء.. وراء ظهرك مالك وأهلك هجرتهم دون أن تدري لتدخل إلى عالم آخر فيه من الطفولة

البراءة، ومن الشباب الذنوب، ومن الكهولة الوحده .. كلها امتزجت كأشباح ذكرى وضباب.

قف واسأل نفسك: أين سأذهب، وإلى أين أنا ماضٍ ، والطريق سراب؟

من أتى بي إلى هنا؟

أين البيوت والنور والقصور، وقد غطى على المكان السكوت؟

أين الشواء والشراب والزينات، والصحاب والكاسيات العاريات، وأوراق البنكنوت؟

أين الخيل والنخيل، واللحن الجميل، والنسيم العليل، وعقود الياسمين وأشجار التوت؟

هنا لم أرَ من متاع الدنيا شيء.. هنا توقّف الزمن وانقطع الرجاء والأمل .. أين القبلة.. أنا لم أعد أسمع أي صوت؟

انقطع بي الطريق.. هنا سأموت على ما أنا عليه.. حتمًا سأموت.

ليس معي كفن، ولا حنوط.. يا الله

ما هذا.. أرى أشباح خيام مسدله، بيني وبينها ليس ببعيد، سوف أقترب منها، أشعر أن قدماي لا تقوى على المسير.

يا الله.. إنها أشباه قبور عليها ثمة ضوء خافت نبشها الزمن فكشفت عن أكفان واهية، وعظام نخره، وأجساد بالية.

بالطبع جميعهم كانوا من أهل الدنيا منهم من تصارع عليها، وركض ركض الوحوش، ومنهم من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، جميعهم ماتوا، ولم ترَ لهم من باقية غير أشباه جماجم تساوت في القبور المنهشة، والله يفصل بينهم يوم القيامة، فيسكن من عمل طيبا في الجنة، ويخزي من عمل سيئًا في النار.

يا رب.. يا الله إني خائف أخشى عذابك، وأخشى قبضة الموت، وأخشى أن تنتهي بي الحياة، وينقطع عملي وذنوبي كثيرة.

يا رب.. جف حلقي، وسكن الرعب بدني، وتجمدت أطرافي.

يا رب.. أمهلني، ولا تأخذني على غره.. اعدني من حيث جئت أعمل صالحًا فيما تركت.

أعادك الله وأعادنا، وردك وردنا إليه ردًا جميلًا.. كانت هذه «نصيحة» لي ولك عسى أن نتجول فيها مع النفس قبل أن تغفو أعيننا وننام على ظلم أو إساءة أو اغتياب أو قذف محصنات أو نقض عهد، فربما نام أحدنا ونسي أن روحه بيد الله، وليذكر كل منا قول ربنا تبارك وتعالي في كتابه الكريم ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[الزمر: 42].

فإن مت يا رعاك الله فأنت في كنفه إن شاء سامحك وإن شاء عذبك، وإن أمهلك إلى الصباح ادع الله بقلب خاشع.. اللهم إني أعلم أنك تراني وأختبئ.. اللهم إني أعلم أنك تسمعني وأهمس.. اللهم إني أعلم أنك حليم فأتمادى.. اللهم إني أعلم أنك غاضب فأتناسى.. اللهم إني أعلم أنك غفور فأتوب ثم أعود.

اللهم إني أعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ولا يستر العيوب إلا أنت، ولا يشتاق للتائبين إلا أنت .. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

يااااااارب.

إلى «منافق» عجوز

عجبًا لرجل بلغ من العمر أرذله، خرج على المعاش، وارتدى «البيجامة» الكستور، ذات الخطوط «البرتقالي» العريضة، وصبغ شعره بالسواد، ليرى نفسه في المرآة وجيه زمانه، وفريد أوانه، وغدا وراح يلهو ويرتع مع ماضيه، كل يوم يستعرض أحلامه التي أكل وشرب الزمن عليها، كل هذا هو حر فيه.

إنما العجيب والغريب في الأمر، أنه بعد هذا العمر امتهن النفاق والرياء، ظنًا منه بأن من «ينافقه» سوف يمُنّ عليه بوظيفة يرتزق منها بدلًا من «تسكعه» على قهوة المعاشات كل مساء، ظن أن سيده ربما يعيده إلى سيرته الأولى، ولم يعلم «الحيزبون» المتصابي، أن الزمن لا يعود إلى الوراء، وأن أصحاب الوظائف المرموقة مقاعدهم من «تيفال».

يا هذا.. إن كنت لا تطمع في وظيفة فقل لي بربك ممن تخاف يا رجل، وقد بلغت من الكبر عِتيا، اتق الله فهو الأحق أن تخشاه، ولا تخش أحدًا سواه، فلن يقبض روحك إلا ملك الموت الذي وُكل بك بإذن رب العالمين، ولن يطعمك أو يسقيك أو يدرأ عنك أجلك غفير ولا وزير.

إنها ساعتك وقيامتك، لا تُعجل ولا تُؤجل.. فإذا خافت نفسك من صاحب عمل أو بطشه بك فلا تقدحه ولا تطريه، وقل «يا نفسي راقبي قبري الذي سأدفن فيه»، واعمل لساعة كربك، فإنها آتية لا ريب فيها، ولن يدرأ عنك أحد ممن تنافقهم من عذاب الله شيئًا، ولن يحملوا عن ظهرك من وزرك مثقال ذرة.

اذكر الله، وعاتب نفسك، وأبكِ على كل يوم يمر من بين يديك، فإنه يقربك إلى مستقرك ومستودعك، لقد عشت الحياة بلهوها وزهوها، ومنحتك أعلى شهادة وأغلى قلادة ، ولم يبق لك من الدنيا غير ظهرها، أرض بما قسم الله لك، واعلم بأن خروجك إلى المعاش منحة لتتفرغ إلى عبادة الديان أكثر مما كنت عليه، ودع عنك الشعر والنثر وأبيات الغزل لقد انتهى وقت السامري، فالنسر العجوز لا يطير إنما يبكِ على حاله يشعر أنه أسير، وأن الفضاء ضاق به، وما عاد وقت للرجوع، فاستلق على شجرة عجوز، ومِلْءَ مقلتيه دموع.

يا هذا.. الفرسان بأخلاقهم يصنعون التاريخ، في شرعهم «الشربات» شربات، و«الفسيخ» فسيخ، لا يكذبون ولا يتجملون، انوفهم عالية أمام أصحاب المعالي، ومع طائفة الفقراء تعفرها تراب السجود لله.

أين أنت منهم، وقد شارفت على عِقد تحزيم حقائب السفر الطويل، انظر لنفسك بعين المراقب، وأنت على وسادتك، وقد هدك المشوار، ولهج قلبك المثقل بحرصك على الدنيا بوخزات من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، ونسيت أن الله بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[البقرة: 156].

اللهم أخرجنا من دنيا النفاق والرياء أعزاء أتقياء أنقياء، واحشرنا في زمرة المساكين، تحت لواء سيدنا الحبيب خاتم الأنبياء والمرسلين.. اللهم آمين.

ودمتم سالمين.

إلى الصديق «المُثلون»

عجبًا لما حدث لك يا صديقي.. أنني أنظر إلى صورتك الآن، ولا أصدق عيناي، وجهك تغير، وملامحك تبدلت من جديد كتمثال من حديد، وذهب النور الرائع الذي كان يباهي شمس النهار، رغم أن الفراق بيننا لم يكن ببعيد، إلا أنني أشعر الآن كأن ما بيننا مراكب فارقت الديار منذ عِقود من زمان.. سبحان الله الذي يمهل ولا يهمل.

هل سرقني الزمن، بعيدًا عن عالمك.. أم أنني كنت في غفلة من هذا.. أم أن سحابة قد حالت بيني وبينك، أم ضعف مني البصر، وجعل على عيني غشاوة، أم أن أمر ما كان بيديك، ووجدت في غيري من لم يكن لك مرايا ليزعجك فاخترت أن تخرج من قلبي وعباءتي إلى حيث دنياك.. فلم تعد عيناي تراك ؟

على كل حال.. الحمد لله صاحب العز والسلطان.. الذي أراني صورتك على ما هي عليه الآن، ولكني حزين لأن الزمن اقتص منك ابتسامة الفرح التي تحاول أن ترسمها بنفسك على جدار وجهك الذي تبدل لونه، وما أنا بالشامت، ولكني لم أكُ أتصور أن الزمن كفيل بأن يقلب موازين الحياة، إلى هذا الاتجاه بهذه السرعة الجنونية.

هكذا الدنيا يا من كنت صديقي مواقف لا تنسى، مرها وحلوها، إذا أراد الإنسان أن يُسقط نفسه في جب لحاجة في نفسه، فلن تستطيع أن ترفعه عيون العالم من جُبهِ، ولو اجتمع بعضهم لبعض ظهيرًا، وإن أراد أن يسمو بنفسه ويتعفف، فسوف يخطو كالطير على قلوب البشر، وإذا ارتفع فتمهل أن تحكم عليه بأنه ملاك غسلته وباركته يد السماء، وانتظر حتى يأذن الله في أمره إما أن يعزه بحبك أو يطرده من قلبك.

لذا دع عنك الفراسة، وما تدعيه عن نفسك من حاستك السادسة أو العاشرة، ونحِ العواطف جانبًا، أو ألقِ بها في صندوق أيامك، ولا تأمن لأصابعك فقد يخدشك «ظُفرك» فكن عليه الرقيب، وقلمه إن كبر، حتى لا يخدش غيرك، فبعض الجراح تصيب جلودنا، وبعضها يصيب قلوبنا في مقتل لا تداويه الأيام.

يا هذا.. قبل أن تحاسب نفسك ضع الله الوكيل على أوراق المسئلة، وإياك وأن تكتب يدك زورًا فإن الذي خلقك فسواك يراك، ولن تستطيع أن تختبئ منه أو تعجز أو تعزب عليه، فإن الأمانة عرضها الله جل في علاه على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولا.

خسارة ثقيلة في الدنيا، لكنها مؤلمة حينما يسقط منا صديق أو عزيز، اختار أن يرحل عنا من أقرب طريق، فراقه بالطبع سينتهي،

ولن تتوقف أمامه مسيرة الحياة، سامح الله الزمن، فقد فضح الكثير والكثير ممن تحلّوا بالعطور، وارتدوا الحُلل الحرير، ألسنتهم كشقشقة العصافير، حديثهم أعذب وارق من المزامير، كنت تراهم فتحسبهم نور من فوقهم نور، ورحابهم روضة وحبور، وإذا ما انتثروا حسبتهم لؤلؤ منثور.. لكن هيهات هيهات يفضح النهار ما دُبِّر في الليل من مكيدة.. وتتساقط الأقنعة المزيفة عن الوجوه.

يا هذا المتوج بالكهولة.. أين الرجولة.. وقد غاب عنك الصدق، وأقبلت على الدنيا تغرف منها حيث شئت، وطننت أن «الأراجوز» الذي يسكن فيك ليرحب بهذا وذاك ويوزع الابتسامات أنه حاز حب الناس.

لا والله .. فما أكثر الذين أجادوا التمثيل في هذا الزمان ستراهم يحيونك بأحسن منك من وراء حجاب، فلا تغرنك بيض الأسنان إن ضحكت لربما دعا عليك القلب والعين بكت.

فتش في صدرك عن قلبك، وفتش في قلبك عن الدنيا، أنت محاسب على ما كسبت يداك وما أثمت، ولا تجعل من تأمين ذريتك وسيلة أو غاية لتأكل في بطنك ما ليس لك، وتذكر قول الحق تبارك وتعالى (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا).

أراك اليوم، تقدمت صفوف العجائز، وظهرت عليك تجاعيد الزمن، ولم يعد منك غير شبح من الماضي أصابه هزال!

أسألك بالله.. هل نظرت إلى المرآه، وتحسست وجنتيك وشفتيك.. بالطبع لا؟

«نصيحتي» إليك يا من أحببت الدنيا، وحرصت عليها، وركضت فيها كحصان جامح، صارع نفسه، ودهس بسنابكه القيم والأخلاق ليجمع الأموال، ونسي أن الدنيا ستجمعه في بطنها أن تقلع عن «النفاق» فهو مفتاح سوء الأخلاق، ولا تخش إلا الله فهو الرازق والرزاق.

أيها العجوز الذي أدمن «النفاق» ليتك تعي مصيرك بأنك ستموت فقير رغم أنفك، وإن لم تصدقني.. أجبني إذ سألتك «كم ستأخذ معك في كفنك غير قطنة وخيوط، وبعض من حنوط؟».

هذا المال الذي بين يديك غدًا سترحل عنه، ويرحل عنك، وثق بأني لست حزين منك .. بل حزين عليك.

نسأل الله العظيم جلت قدرته، وتعالت عظمته أن يُنوّر قلوبنا في الدنيا، وقبورنا في البرزخ، ووجوهنا في الآخرة.. اللهم خذنا منا إليك، ولا تخزنا ولا تفضحنا يوم العرض عليك، اللهم اجعلنا معك في طاعة، واجعلها خير بضاعة، وحببنا في صلاة الجماعة،

وذكرنا بالموت كل ساعة.. اللهم تولنا تحت التراب إذا غُلقت الأبواب، وانصرف عنا الأهل والأحباب، وتقطَّع منا الأرحام والأنساب، ونسينا الصحاب، اللهم اجعلنا من أهل اليمين، واحشرنا تحت لواء سيدنا الحبيب خاتم الأنبياء والمرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لا للإرهاب لا للبلطجة

حدِثني يا من أطلقت الرصاص على نفسِ مؤمنة أو داهمتها بسلاح «مسنون» فأزهقتها لتُرضِي عنك شيطانك أو جنونك.. حدِثني عن نفسك إذا ما خلوت بها، واستعدت شريط الذكرى، ومن أمامك ضحيتك على شفتيه رعشة الخوف، وفي عينيه رعب الدنيا، وفي حلقه غُصة من يخشى الموت، ويديه تسترجِيك وتسترحمك.. حدِثني عن المكافأة، وعن الجائزة التي منحك إياها البلطجي، هل أشبعت طموحك وغرورك، ومنتهى مُبتغاك من دنياك.. وهل كُوفِئت جزيلًا يا هذا على صنيعك؟

قل لي بربك كم ستعيش متوجًا وسط أهلك يتغنون على مَقدِمك، ويضربون لك السلام.. عدة أيام.. عام.. مائة عام.. حتمًا على عَجَلٍ.. سينتهي بك الأجل إلى محطتك الأخيرة.. إلى دارك مستقرك وقرارك.. رجليكَ لا تقوى عليك.. كُرسيك المتحرك بانتظارك.. تلهث أنفاسك المُجهده لتصل إليه.. لتستريح عليه، ولكن يا حسرة شبح القتيل الذي صوبت رصاصك أو «سلاحك المسنون» إلى صدره ذات يوم.. يحاصرك على جُدران غُرفتَك

وعلى سريرك.. أين تهرب والشبح لا يحجبه أبواب ولا يصرفه عنك مجالسة الصحاب.. قتيل تحت التراب يطار قتيل مات في جِلدِه!

حدِثني عن طفلك الوحيد المريض.. هل تُصلي لأجله.. هل ترفع أكُفك إلى أبوابِ السماء.. هل قنطت من الدعاء.. اعلم يا هذا:

ابنك هو «نبتك» الذي غرست.. ما رعاه إلا أنت.. لقد رَوَيته بدماء «ضحيتك».. فاعوجَّ العود وأصفّر على سُوقِه.. ادعِ له ما استطعت.. ادعِ له كثيرًا فإنه بحاجة (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال).. يا هذا الذي يتمت وأرملت وأثكلت.. وفعلت ما فعلت لتكسب يدك مغنَماً يقيك حر الدنيا إذا أشتد قيظها عليك.. ويُدِرُ إليك ما يسيل له لُعابَك.. يا هذا الذي قتلت وسفكت.. كان حَرِيُ بك أن تهدِم جُدرِ الكعبة حجرًا حجرًا.. ذاك أهون عند الله مما قتلته، وإن لم يركَ شاهد، وإن لم يقتص منك قاضٍ.. فا الله يرى ويسمع من فوق سبع سماوات، وهو الذي يقضي بين عباده.. ستأتيه يوم القيامة فردًا.. يوم الحسرة والعسرة والندامة، وعلى يديك دمه.. فماذا ستقول لربك.. إذا سألك فيه.. بأي ذنب قُتِل؟

كيف طاوعك قلبك أن تتجرأ على نذير الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾[النساء: 93].

الآن وقد انقصف ربيع العمر، ومضى السامري إلى غير رجعة.. والكُل إلى زوال، ولم يبق إلا وجه الله الكريم.. لي سؤال: هل علمت مقامك ومستقرك الآن؟

ليتك يا هذا.. تحدِثني عن ليلك بعد أن مات فيك قلبك.. حدثني عن كابوس الأمس: «كيف غابت عنك الشمس، وانسكب من القِنين العِطر، وكُسر القوس، واحترق نخيل البيت وسُباط التمر، وكيف زاغت الفردوس وقُضى الأمر».. حدثني حين فُزِعت، وحين هرعت.. ماذا رأيت؟

قل لي بربك بماذا سينطِق لسانك إذا غرغر فِيك، ويَبَسَ وعَبَسَ كل ما فيك، قل لي بربك ماذا ستفعل في حَرِ هذا اليوم.. وأهلك يلقنوك الشهادة من حولك ووجهك شاحب مُعتصِر، ولسانك قد عُقِد، ولم تستعد من قوتك قدر أُنمُلة.. أطرافك تنقبض ترتعد.. وعيناك تبتعد.. خاصمتا دنياك وبلغت روحك الحلقوم.. وأهلك حينئذٍ ينظرون.. وإذا لم يستجب الله لمسترسل أو متوسل.. وسكرَةِ فَسكرة.. فاضت روحك.. والله أعلم بها منا .. وواراكَ الأهل والصحاب تراب قبرك وحيدًا فريدًا بلا شهادة ولا قلادة.. ماذا ستقول لربك وعلى يديك دماء لم يستطع أن يُغسِّلها المُغسِّل؟

نسأل الله بجلاله وعظيم سلطانه أن يعم الأمن والأمان على ربوع بلاد المسلمين، وينزع ما في صدورهم من غلٍ أو ثأرٍ، ويتغمد الشهداء بواسع رحمته، وجميل عفوه وغفرانه، ويلهم أهليهم الصبر والسلوى على فراقهم، ويشف الجرحى، وأن ينتقم الله ممن قتل نفسًا أو روعها، ولا يغسِل لقاتل حَوبَة، ولا يقبل له توبة، وأن يحشره في قبره ضيقًا حرجًا، ويخرجه يوم القيامة على الأشهادِ أعمى.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

إياك وطعام الحرام

إياك وطعام الحرام «يا عبد الله».. فإنه ذو غُصةٍ مُهلِكة.. وإن يُبلَع فإنه لا يُشبع ولا يُسمن ولا يُغني من جوعٍ.. ثم والله إنه ليُنبِت في البطون رغبة لها حمحمة لا يُطفئ صهِيلُها إلا حرام آخر يتبعُه.. ويتوالى على بعضه البعض.. فيستصعب على النفس الرجوع.. والمذاق له سَاق مُسَاق.

وإني أُذَكِّر نفسي وإياك.. أن أطعِم آل بيتك من كد يديك، وجهدك وعرقك.. وإن كانت كِسرة خُبزٍ ومِلحُها.. أو تمرة قِطميرُها وفتِيلُها أو أقل من دونها.. فالله أولى ببركتها.. ويتولاها من توكل بها في جوفك.. واعلم أنه ما مات على ظهر الأرض من قبلك جوعان.. فتحمل وتجمل واصبر.. فإنك على حر النار لا تقدر، والبِطون لا تشكُر.

اعلم يرعاك الله أن اللقمة الحرام لن توفر لك درهماً ولن تُطيل لك عمرًا، ولن تُرطِب لسانك.. فتحرَ الحلال في عملك وتِجارتك مع غيرك أينما كنت قبل أن يُنبتَ به لحمك.. لربما كنت في حاجة إلى دعوة يتقبلها الله منك في وقت ضيقٍ أو شِدة أو مرض أو يُفرج الله عنك كـُربة من كُربات الحياة الدنيا وما أعسرها وما أكثرها..

فأطب مطعمك كما أوصانا سيدنا الحبيب محمد (صلى الله عليه وسلم) تكُن مستجاب الدعوة.

عفا الله عما سلف منك، وتُب إلى الله توبة نصُوحا عسى الذي سَترك في الحرام ولم يفضحك والذي أمهلك وأمد لك أن يتقبل منك ويتوب عليك.. فلا تدري ماذا بعد لقمتك.. فالمرض يَغدُر.. والموت لا يُنذِر.. فاتقِ الله واذهب إليه يا عبد الله مُغَسلا يدك من أكل الحرام، وقلبك من الذنوب والآثام، ورُد الآن ما استطعت من ظلمك للعباد فإنك تارك ما نهبت خلفك لخلفّك.

واعمل صالحًا لنفسك تُجزَ عليه.. فالذنب ومن يعمل به مردود عليك .. وخذ من شيبة جارك لشبابك، وارضَ بما قسم الله.. ولا تمتعن عينيك بما مَتع الله به غيرك من الصحاب والأحباب.. فلا يملأ عين بني آدم غير التُراب.. وكل ما تراه مآله السراب.. وأنت وبنوك وزوجك وصحبك وأخوك وكل من على الأرض من زينة وكنوز وبهجة ونفوذ.. مآله إلى زوال.

تفكر في أسلافك، وكم من ملك وسلطان كانوا أشد منك قوة وأكثر بأسًا.. جمعوا من عرق الضعفاء بسياطهم الملايين، وغرق المساكين في بحارٍ من الدّين.. جميعهم الآن صاروا أثر بعد عين.. فلا إله إلا الله.. الذي استخلفنا في الأرض لبضع سنين نتصارع

عليها، ونركض فيها ركض الوحوش في البرية حتى إذا جاء أمر الله.. كأننا لم نكُ شيئًا مذكورًا.. أو كأننا نسياً منسيًا.

فلا تلعن حظك إذا ما أفقرك.. ولو شاء الله لك خيرًا في الرزق لأغناك.. ولا تجعل منك الأدنى.. ودع عنك الحرام فما أغنى.. وكل ما علاه وما تراه.. سيفنى.. ويبقَ وجه ربك الأعلى.

من أرض الغُربة

الغربة كربة، وأرض من جمر، وحرقة قلب، وألم يكبر، ومعاناة تستفحل، وتجربة قاسية مريرة، ليست بهيِنة، ولا بِليِنة على المغترب الذي فارق الأهل والخلان، ولنا أن نتخيل لحظة الفراق والاستعداد للرحيل إنها تشبه إلى حد كبير فراق الروح للجسد!

رفقًا بالمسافر فلا أحد يدري جبال همومه وأحزانه إلا الله، يكفِ أنه ينخلع قلبه من بين أحضان الأب والأم والزوجة والأطفال، رغمًا عن أنفه، بعد أن أصبح الفقر كُفر، ولو نظرنا للمسافر بعين الرحمة وقرأنا بريق الدموع في عينيه سنجد فيهما حيرة وشتات ومشاعر حزن دفين، لجداول دموع حبسها عن أهله، وعجز الفلاسفة عن وصفها أو فك رموز شفراتها أو الوصول لقاعها.

رفقًا بالمسافر يكفِ أنه في آخر ليلة له قبل رحيله يصاب بدوار يغشاه موج من فوقه موج، وتتكتل على رأسه وجسده علامات أمراض الدنيا ولكن بلا حمى، وأمام معاناته فشل أطباء العالم من علاج اكتئابه وألمه المعنوي.

أما لحظة فراقه لأهله فقد عجز فطاحل الأدباء والشعراء وأنبغ الكتاب عن وصف حجم الهم والغم والكرب العظيم على وجهه، جميع علامات اليأس والخوف تتجسد فيه لحظة الوداع المرير، والله الذي لا إله إلا هو إن مفاتيح كنوز العالم بأسره لا تستطيع أن تمسح أحزان قلبه المُنكسِر في اللحظة التي يشعر فيها المسافر باليُتم، ويكفيه من غربته التي اشتعل منها الرأس شيبا، أن الأيام والساعات فيها ثقيلة مريرة، ويبقى ما خفي كان أكبر وأجل وأعظم.

أما أول ليلة ينزلها في الغربة فهي أشبه إلى حد ما بأول ليلة يبيتها في قبره، مخالب تنهش في جسده بلا رحمة ولا تدعه يهنأ، وصفير ريح في العقل لا يهدأ، أشلاء جسد محطم يمشي على الأرض فوق الصعب يحمل الأشواك على ظهره، وبه من الألم ما تئن له الجِمَال وتخر له الجبال.

أما وقت العمل فما أثقله على الغريب فهو بطئ كخطوات عجوز عاجز هدَّه طول المسير على طريق من الأشواك، وأما وقت السكِينة يشرد فيه الذهن، بعد أن أسند الغريب ظهره على حائط الغربة الذي لم يرى فيه الراحة ولو للحظة واحدة.

ضريبة الغربة أنها تأكل وتشرب من دم المغترب، وتسرق مرحلة الشباب أجمل أيام العمر تمر كالبرق الخاطف، مقابل حفنة من

الدولارات، منتهى القسوة التي يمكن أن يتحملها المسافر لأجل توفير لقمة العيش لأطفاله «اليتامى» وهو على قيد الحياة، بعد أن تغرب عنهم، ولا يتمنى لهم غُربة كي لا يعيشون تجربته، ولا يعانون معاناته، كل هذه المرارة تذروها الرياح بمجرد عودة الغريب لبيته، ورؤيته لأهله ينسى همومه، وجبال أحزانه ليرى الابتسامة على شفاة أطفاله.

رسالتنا للأهل نكتبها بمداد الدموع على صفحات من أعمارنا، أخبارنا إليكم تحملها صورنا، وجوهنا تضحك لأجلكم، وقلوبنا تبكي وتتمزق لفراقكم، ولا نملك من شريط الذاكرة إلا ذكراكم العاطرة التي نعيش عليها، ونتنفس بها حتى تغرب الشمس، ثم نستلق على الأسِرّه، ومنا من يفترش الأرض، ومنا من يلتحف السماء لينام، داعين الله أن يَمُنّ علينا ونراكم في المنام، ولكن غالبًا ما يداهم ليلنا هواجس مفزعة تطاردنا من ليلة لأخرى، وكأن القدر كتب علينا أن نعذب في كل يومٍ وليلة مرتين.

الغربة ألم وعذاب، وأرق واكتئاب، وحزن وبكاء، وتعب وشقاء، وكأس من حنظل يتجرعه المغترب ولا يكاد يسيغه، بل هي نصف موت أو أكثر من ذلك، والشمس لا تغلي إلا فوق رأس الغريب، وحسبه من غربته جرعة ماء تسد جوعه ورمقه، باختصار هي حالة لا يعرفها إلا من عاشها وذاقها، ويكفي من مواجعها أنك

«غريب»، لا تملك في يدك ثمن تذكرة شحنك لبلدك، ولا ثمن كفنك حين تموت!

طوبى لكم يا معشر الغرباء.

ودمتم سالمين

إلى «مُنتحر»

الحمد لله الذي أحب عبده فابتلاه، يا أخي استغفر الله، وولي وجهك شطر السماء.. ستراها صافية.. إنها نفس السماء.. بالأمس كانت غائمة تحلق فيها غربان ويكسوها السواد، واليوم بإذن ربها كشف عنها الغيم والضيم.. تذكرة للعباد، فخذ عني يا أخي كلمات، وإن كنت أنا أحوج بها منك إليك.. هي ليست مواساة، ولكنها حكمة العليل من رحم الصبر الجميل.

يا أخي.. كن أطول مني صبرًا، وأكبر قدرًا، وأعظم جَلَدًا، واعلم أنك لن تموت إلا إذا استوفيت أجلك، واعلم أن الله أمهلك.. فاصبر لحكم ربك وعش ما بقى لك، وتوفى على كلمة حق لا على باطل.. توفى على رضوان من الله، ولا تكونن قاتل، وانتظر إن كان الانتحار يناديك، واصطبر فإن الموت ملاقيك.. لا تتعجل خاتمتك.. غدًا ستموت فا ختر لنفسك ميتتك.. عاصٍ أم متدين .. فوالله إن دخول قبرك رعب، وانه ليس بهيّن والحساب عسير، وسؤال الملكين صعب، والموقف جد خطير، وصبيحتك يوم القيامة.. يوم الطامة والندامة.. نسأل الله لنا ولك السلامة.

ليعلم المجتمع أن لكل نقطة صفر أو نهاية قد يصل إليها في لحظة معينة.. فمن قـّسم الصحة والمال.. هو من قـّسم حبال الصبر والآجال، وكل في كتاب.. فلا يتشاحن بعضنا بعضًا، ولا يسخر قومٌ من قوم، واعلموا أن من وهب سلب، ومن أغنى أفنى أنّا شاء.. وليترفق القوي بالضعيف، ولا يتفاخر الغني بكنوزه، ولا يستعرض العفي بنفوذه.. فما أغنت الدنيا من حي على ظهرها إلا وقصمته في عزيز، وليعلم كل متكبر متجبر أن الله هلك قارون وهو الأكثر مالا وسلطانا وزينة وحظا، كما اهلك فرعون الأشد منه قوة وأكثر بأسًا.. ولأولي الألباب في خاتمتهم لعظة وعبرة لمن يخشى.

يا أخي.. أنا أعلم أنه قد شح رزقك، وضاق صدرك، وما أذلك إلا فقرك، ومضى عقلك إلى حال سبيله، وتلاعبت بك الهواجس، وأظلمت في وجهك الشمس، كأنك مطرود ومطارد من جميع بني البشر، وعز على الشجر أن يمنحك ظلًا، وضاقت بك الدنيا، واستحوذ عليك اليأس، وكل من حولك يهاتفك.. تخلص من حياتك وضع حداً لمأساتك.. يا أخي تذكّر أن الله عز وجل لم يضيق عليك إلا لحكمة يعلمها، وما شدد عليك إلا لتتقرب إليه.. تدعوه تضرعًا وخُفية، وما بين ربك وبينك حجاب، ولا بينه وبينك خصومة حاشى لله في كبريائه وعليائه.

يا أخي أغمض عينيك وارفع يديك إلى السماء، وقل من أعماق قلبك وجوارحك (يا فرج الله القريب)، واعلم علم اليقين بأن الله سيستجيب.. فسبحانه سبحانه يراك، ويسمع نجواك.. اصبر سيفرج الله عنك كربك.. اصبر واحتسب ربك.. اصبر ولا تك في ضيق.. إذا خُذلت فقل (أنت وكيلي وحسبي.. يا جابر المنكسر)، وإذا ظلمت فقل (اللهم إني مغلوب فا نتصر)، وسلم أمرك وعمرك لله -جل في علاه- وقل يا نفسي (سيمضي اليوم كما مضى أمسي) فلا تكن في خسرٍ، والتمس لحظك ألف عذر.. عساه خير، وقل (آمنت بما تلوت من الذكر، وصدق الله إن بعد العسر يسر.. إن بعد العسر يسر).

لا للتنمر

لا إله إلا الله الحليم العظيم غافر الذنب وقابل التوب.. سبق عفوه حِلمه، وسبق حِلمه غضبه.. هو الذي خلق الموت والحياة وكل في كتاب مبين، لا عاجل لما قدر، ولا آجل لما قضى، وما أخر طبيب من عمره، ولا سبق منتحر أجله.. سبحانه سبحانه، ولا تقال إلا له.. لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وما اطلع على غيبه أو عِلمه أحد.

ليكن لنا ممن سبقنا إلى رحاب الله وأقدم على الانتحار درس لنقف مع أنفسنا طويلًا قبل أن يكون لنا فيه عظة وعبرة، ونتدبر ماذا حل به من خطب ليُقدم على فعلته، ويزهق روحه، وإني على يقين أن الجواب بلسان حالنا لا يخفى علينا، ولكنا تناسينا أن ما بين العقل والجنون أقل من طرفة عين وانتباهتها، والأمر كله لله جل في علاه، هو الذي وهبنا «العقل» لنعي ونتدبر، وإنه على ذهاب به لقادر.. هم الذين خارت عزائمهم، وانكسرت قامتهم أمام أبنائهم وبناتهم وأهليهم، وأذلهم غلاظ القلوب الشِداد، وقسوا على مشاعرهم كأنهم ملح الأرض أو دودها.. لا قيمة لهم، ولو شعرنا بهم لبكت عليهم نياط قلوبنا، وانفطرت عليهم السماء.

من منا لم يمر بالضيق والكدر، واستشعر أن الخلاص من فقره أو فشله أو مرضه أو كبوته مرهون بنهايته.. من منا لم يضعف في لحظات الكرب والضنك.. من منا لم يلطم خده، ولم يشق ثوبه.. من منا لم يضيق بنفسه ذرعا، وسب يومه وأمسه.. من منا لم يتمنى نفسه لو كان تمرة أو شجرة أو ورقة في مهب الريح.. من منا لم يلعن حياته واليوم الذي ولد فيه وتمنى مماته.. من منا لم يخطر بباله هاجس الانتحار ليضع حدا للبؤس والشقاء موقن في قرارة نفسه أن رحاب الله جل في علاه سيكون أجود وأرحم من جوار الوحوش الكاسرة الضارية الذين يتصارعون ليل نهار ويتكالبون على الحياة الدنيا.. ويطؤون بأقدامهم الفقراء وذوي الحاجة.. من منا لم يتمنَ أن لم يكن شيئًا مذكورًا؟

هونوا على أنفسكم يا من ضاقت عليكم الحياة، ولفظتكم الدنيا واسودّ ليلها، وحلك ظلامها وفاض خطبها، وطفح الكيل وبلغ السيل الزُبي، ولم يبق في قوس الصبر منزع، يا من خارت قوتكم، وخرب الغلاء والبلاء بيوتكم، وبلغت القلوب الحناجر من فزعها وهلعها واضطرابها.. فواللهِ إن الفجر لآت، ولسوف يجزيكم الله ما وعدكم حقا.. ثواب الصبر على ما ابتلاكم به من الخوف والجوع ونقص الأمـوال والأنفس والثمرات.. ابشروا واسترجعوا الله العظيم، وليكن زادكم وماءكم إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وأنتم على رِسلِكم يا من أنعم الله عليكم بتاج العافية وأغدق عليكم المال والجاه والبنين، ولم يكدّر صفو ترفكم بفقر أو ضيق أو فاقة أو جنون، ولا يشمَت بعضكم بمن ضاقت عليه نفسه فأقدم على الانتحار، ولا يسخر من أنعم الله عليه بعقله ممن فقده في لحظة انهيار فمن منَح النعمة قادر على ذهاب بها.. فلا تحسبوهم أقدموا على الانتحار وهم في أوج قواهم أو أن أفلاكهم تدور بإذنهم في مسار أبراجهم أو طالعهم السعد.. لا والله إنهم صبروا واحتسبوا، وبكوا بليل طويل لا نامت فيه أعينهم، وأرَّق مضاجعهم الغلاء والوباء والأمراض.. بكوا وابتلَّت لِحاهم دون أن نشعر بهم.

أسفًا، قد استهنا بحرمة الإنسان الذي كرّمه الله وخلقه في أجمل صورة ما شاء ركبه، وصنعنا له الحيل ودبرنا له المكائد ليتعثر ويهوى في أضيق حفرة لنتشف فيه والدموع تملأ عينيه، ونشمت فيه وهو يتوسل إلينا، ونسخر منه وهو يصارع الموت.. كل منتحر ما هو إلا صفعة على وجه من أودى به إلى هذا المنعطف.. رحمك الله يا عمر (لو بغلة في أرض العراق تعثرت لسألني الله عليها.. لما لا تسوي لها الطريق يا عمر).. وعلى كلٍ قضى الله الموت على كل حيٍ، ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها.. (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلًا) صدق الله العظيم.

لا نسترق «السمع»

ما أغرب الليل حقًا، وما أعجب ما يخبئه بين أحضانه من هدوء وسكينة، وأصوات تنبعث من الجنبات في أوقات السحر تشق ظلام الليل، ويسترق لها السمع ولو كنا في بروج النوم السابعة.

هذه القصة الغريبة أرويها لكم على مسئوليتي الشخصية ولتسامحني بطلة القصة وزوجها الرجل المغلوب على أمره، فكلاهما يقطنان بالطابق الأسفل بنفس العقار الذي أسكن فيه، والرسالة وددت من سردها أن نتعلم جميعًا أن حقوق الجار تحتم علينا وجوب السلام والتحية والتقدير، وأن نتعايش سويًا تحت مظلة الاحترام المتبادل مع مراعاتنا حرمة الجار وقدسيته، وألّا نسترق «السمع» ولا ننخرط في ما لا يعنينا – كما يقول المثل – حتى لا نسمع ما لا يرضينا.

القصة والحوار سأتناولها لكم باختصار شديد حتى لا أطيل عليكم وكما هو معروف أني أعشق السهر، وطقوس الراحة في النوم لا تتعدى ثلاث أو أربع ساعات، وبينما أستعد ذات ليلة لأخلد للنوم حتى سمعت أصوات بعيدة على مرمى السمع تكاد تكون مريبة شيئًا ما تصدر عن سيدة، ومع مرور الوقت تعالت الأصوات شيئًا فشيئًا

فانتبهت إلى المصدر فإذا به من الشقة الأسفل واسترقت السمع فكان هذا الحوار:

(حرام عليك ارحمني من قرفك.. أنا تعبت تعبت بجد.. ما عنتش قادرة أتحمل.. صبرت عليك كتير.. لكن واضح إن مفيش فايدة فيك.. أنت إيه أعصابك إيه.. كل ليلة تقوم عليا وتبهدلني بالشكل دا.. وأنا بتحمل وأقول يا بنت عدي.. اصبري كلها ساعة أو نصف ساعة ويهدى الحال.. لكن مفيش فايدة فيك.. فاكر لما أتكسرت من أربع شهور.. ورحت بيك للدكتور، وركّب ليك جبس لمدة شهر وأنت مطلع عيني، ومجوعني، وبقول معلش اصبري وما تحمليش عليه.. وجريت بيك تاني على المستشفى وركبوا ليك بلاتين وفضلت ليلة بطولها سهرانة ما دوقتش فيها طعم النوم.

ما زال الحديث على لسان جارتي:

وأنا علشان أصيلة وبنت ناس ومتربية.. ما رضيتش أقول لأهلي على قرفك وبهدلتك فيا كل ليلة.. وأمي تسألني عنك كل ما أزورها.. أقول لها الحمد لله بخير يا ماما بقى كويس ومريحني على الآخر.. مع إنك مطلّع عيني.. أنا مش عارفة اشمعنا أنت اللي في جيرانك معطوب ومايل.. مع إن كل جيرانك نضاف وشكلهم أبيض.. بسم الله ما شاء الله من غير حسد بشوفهم ألاقيهم مسمسمين ومتلمعين

وبيبرقوا.. شكلهم يفتح النفس.. وكل ما بص ليهم وأشوفك وأنت جنبهم أتحسر.. وأقول اشمعنا أنت اللي فيهم قصير وقوزعة ومنخور ومكسور، ومنكد عليا عيشتي وكرهتني في حياتي.. كل دا وأنا صابرة عليك يا معفن.. أنا خلاص مبقيتش متحملاك.. خلاص أنا قررت اشتري دماغي واخلص من قرفك وبهدلتك فيا كل ليلة مهما كلفني التمن.. حتى لو هاخلعك).

فجأة سمعت صوت ارتطام شديد في شقة جيراني فأيقنت أن الأمور قد تطورت من شجار إلى تشابك بالأيدي بعد أن سمعت أصوات صراخ جارتي:

(خلصوني منه بأي تمن)

ثم سمعت صوت زوجها:

((وأنا موافق على الخلع عشان أرتاح أنا كمان من الدوشة والموال بتاع كل ليلة))

هنا قلت في نفسي إن ابغض الحلال عند الله الطلاق، وعزمت على أن أتدخل لحل المشكلة فورًا دون تأخير، وقررت النزول إلى شقة جيراني لتهدئة الأمور، ولعل الله أن يوفقني وأصلح بينهما، وبسرعة وصلت إلى شقتهما، وطرقت الباب كانت الساعة قد اقتربت من موعد آذان صلاة الفجر.. وقد فتح باب الشقة شاب في

العقد الثالث من العمر.. عرّفته بنفسي واستأذنته بالدخول فسمح لي، واقتادني إلى غرفة الصالون، وقلت له أني سمعت حوارهما دون قصد، وأتيت لحل المشكلة فرحب بي.. ثم أتت على الفور زوجته، وكانت في حالة عصبية شديدة، وسألتني بصوت حاد:

(أنت الدكتور؟)

فقلت: لا.. أنا جاركم

فقالت: (ولما أنت مش دكتور جي ليه الوقتي)؟؟!!

فقلت: حضرت لأحل المشكلة

فسألتني: (أنت صيدلي؟)

فقلت: لا..

فقالت: (إذن تفضل من غير مطرود، وابعت لي دكتور حالًا أو صيدلي، واتفضل من غير مطرود)

فخرجت مسرعًا من الشقة دون أن أفهم شيئًا، وزوجها يركض خلفي يتوسل إليّ:

((أرجوك يا أستاذ أن تساعدني وتحضر لزوجتي «طبيب أسنان» لأن ضرس العقل يؤلمها جدًا.. فقررت خلعه)).

فسقطت مغشيًا عليّ من الضحك

وعلمت أنه كان حوار من طرف واحد!

«مِسك الختام»

اطلب السماح وأنت في أوج صحتك.. أفضل من أن تطلبه بعد مرضك أو خوار قوتك.

***

لا تنتظر ممن باعك وهان عليه البعاد أن يسأل عنك.. فإن شاءت الأقدار وعاد.. سيأتيك بنصف العالم أعذار.

***

لا تظن بذكائك أنك غالب لن يغلبك أحد.. فسرير المرض قد يستدعيك في أي لحظة، ولن ينفعك عِز ولا مال، ولا صاحبة ولا ولد.

***

لا يخدعنك في الإنسان رطب اللسان.. فكم من كلام معسول تلألأت من حُسنِه الجُدران والقلب أسود من القطران.

***

لا تكن مغلق الأفق مع الآخرين واعلم بأن كل الأبواب لها مفاتيح.. إلا أبواب القلوب يغلقها إلى الأبد العِناد والحِجج.

لا يسرك أصلك وفصلك وطول أملك وحُسن عملك.. فقد لا يساوي كل هذا جناح بعوضة حين ينتهي أجلك.

***

احرص على إسعاد الآخرين لأن الخواطر من السهل أن تضربها في مقتل ولديها مقدرة أن تصبر.. أما القلوب فهى كالجواهر إذا انكسرت لا تُجبر.

***

لا تكن كـ«الوزغ – البرص» ينفخ في النار كلما حل أو ارتحل، ولكن كن كـ«ظل» جميل، أو عابر سبيل، وكفى ما بغيرك من مآسي وهموم، الله وحده أعلم بها.

***

القلب يشعر بوجع «الإهانة» قبل أن تسمعها «الأُذن»، وقبل أن تقرأها «العين» على «الشفتين».

***

لا تنسَ يا أنت.. أين وكيف كنت؟

واعلم بأن هذا الفقير، والمسكين، والسائل، والمحروم، والعاجز، والمريض، والطريد، والغريق.. كل الذين رأيتهم على

الطريق هم شريط ذكرياتك أعاده الله الذي أحسن إليك.. فترأف بهم، وأخفض جناحك عليهم.

دمتم سالمين.. آمين يا رب العالمين

تعريف بالكاتب

الاسم: **عادل عبد الباقي محمد**

الشهرة: عادل الحلبي

الجنسية: مصري

مواليد: محافظة الدقهلية

حاصل على بكالوريوس العلوم / كيمياء

الهواية: الشعر، الأدب

البريد الإليكتروني: eymaadel@gmail.com

صفحته على الفيسبوك: https: //www.facebook. com /adel.elhalaby.754

الخبرة العملية: عمل محررًا صحفيًا بجريدة الحقيقة

عمل محررًا صحفيًا بجريدة الأحرار

عمل محررًا صحفيًا بجريدة المساء

نشرت العديد من أعماله الأدبية في الصحف القومية، والدولية.

تم تكريمه عن أعماله الأدبية في عدة مؤتمرات دولية.